حراء

مجلة علمية ثقافية أدبية

دورية تصدر كل شهرين

www.hiragate.com

السنة الثانية عشرة

صفر ١٤٣٨هـ / (نوفمبر - ديسمبر) ٢٠١٦م

حلم يراودني

في السّنينَ الخوالي كان لي حلم،
أنْ أرقى وقت المغيب نحو الأعالي،
في سماء لازورديّة صافية،
حتى أصل إلى ديار الأهلّة الحبيبة،
ومن خلفي آثار ناصعة،
أحتضن من تلك الأهلّة واحدًا،
أضمّه إلى صدري، وأعود به إلى بلادي،
ينير ظلام ليلها البهيم...

٢ بيان القلب ولغة الحال
فتح الله كولن

١٣ قلوب وذنوب
أديب إبراهيم الدباغ

٥٥ التراحم بين الحيوانات
أ.د. ناصر أحمد سنه

تأشيرة الوجدان

في هذا العدد يكشف لنا الأستاذ كولن عن جانب من شخصيته الأدبية واقتداره الفني في التعبير والبيان، حيث يسرد في المقال المعنون بـ:"بيان القلب ولغة الحال" الخصائص التركيبية والفنون الجمالية التي بها يقوم البيان ويكتسب التعبير رونقه وبهاءه، لكنه رغم تقديره لهذه الخصائص التعبيرية وبيانه لفضلها، يرى أن البيان مهما اكتسى من حلل البراعة وتأنق بزينة الجمال، لا يمكن أن ينفذ إلى القلوب ويستولي عليها ويكتب له البقاء، ما لم يكن مرتبطا بعالم القلب، وحاصلا على تأشيرة من آلية الوجدان، ومصطبغا بصبغة الحال. وفي مقاله المعنون بـ"السلوك الإنساني في القرآن بين ضوابط الإرادات ودوافع القيم" يعقد جمال الحوشبي دراسة مقارنة حول مفهوم السلوك في علم النفس المعاصر وفي الكتاب والسنة، وكيف تتجلى ميزة الوضوح في النظرة الإسلامية للسلوك الإنساني، بخلاف التعقيد والغموض الذي يكتنف حقيقة السلوك الإنساني في علم النفس المعاصر. كما يلقي متين رئيس أضواء كاشفة على أسرار السيرة الحسنة للفتوحات العثمانية إلى يومنا هذا، ويضرب على ذلك أمثلة من تاريخ الفتح العثماني. وإذا كان بقاء الأمم مرتبطا بأخلاقها فإن محمد السعدي يتناول هذا الموضوع من زوايا متنوعة ويعرض للعلل الأخلاقية التي تتسبب في دمار الأمم وهلاكها، تبعا لسنة الله التي لا تتخلف. كما يواصل أحمد عبادي الحلقة الخامسة من سلسلة "علومنا الإسلامية والسياق الكوني المعاصر" مبينا فيها أهمية الوعي بالسياق على تنوع أبعاده وأشكاله. وفي زاوية العلوم يكشف لنا محمد السقا عيد جوانب من عظمة الله سبحانه وتعالى في خلق عيون الطيور. وفي العلوم أيضا مقال بعنوان "الوباء" بقلم حلمي محمود مدبولي يبين فيه أنواع الأوبئة التي ظهرت في التاريخ حتى يومنا هذا، مذيلا ذلك بسبق النظرة الإسلامية حول التدابير الصحية اللازمة للوقاية من تلك الأوبئة. كما يعرض في باب العلوم أيضا ناصر أحمد سنه صورا رائعة لأنواع من التراحم بين الحيوانات. وفي ركن الثقافة والفن يعرض بركات محمد مراد رؤية الإسلام للفن والجمال مقارنة بالرؤية الكلاسيكية الغربية. أما عبد الكريم عطيوي فيلقي ظلالا واسعة على منهج الأستاذ النورسي في مسألتي اعتبار المآل واستشراف المستقبل الذي استمده من تدبره للقرآن الكريم، وتفكره في أحوال الكون والإنسان. وفي جولة مصورة يتناول جواد محمد إبداعي صورة جمال الخلق والإبداع كاشفا عن بدائع سر الكينونة في خلق الخلق، بدءا من الخلق الأول وانتهاء بالصورة التي وصل إليها هذا المخلوق. وفي مقال متميز لهشام الراس يستعرض عددا من الجوانب التي تتسم بها شخصية رائد حركة الخدمة الأستاذ كولن، ويبين من خلال ذلك كيف ينظر علماء وأكاديميو الغرب إلى فكر الأستاذ. كما تطالعون في هذا العدد الحلقة الأولى من حلقات المفكر سعيد شبار بعنوان "مفهوم الوسطية في تقويم الفكر والاستقامة" يؤطر فيها لهذا المفهوم تأطيرا شاملا باعتباره أحد أهم المفاهيم المحورية والمركزية في ثقافتنا الإسلامية، بغية استعادة وظيفيته وإجرائيته الأصلية في ترشيد وتقويم حياة المسلمين. وفي واحة الأدب يطالعنا أديب الدباغ بتحفته النثرية المعنونة بـ"قلوب وذنوب" يناجي فيها القلوب الطاهرة ويودعها بعضا من جواهر المعاني. كما تبثنا زبيدة هرماس في محاورة قصصية مشاعرها النورانية في أفناء الحرم المكي بعنوان "دردشة تحت الشمس" تستعرض فيها شمس الإسلام الساطعة التي تنشر أشعتها على الناس كافة بلا تمييز. وفي نهابة العدد مقال رائع في التزكية للطف الله خوجه بعنوان "دواء القلوب" يبين فيه أسباب قساوة القلوب وطرق مداواتها مستأنسا بالسيرة العطرة لسلفنا الصالح.

المحتويات

بيان القلب ولغة الحال / فتح الله كولن (المقال الرئيس)	٢
التمساح يروي حكايته / أ.د. عرفان يلماز (علوم)	٥
السلوك الإنساني في القرآن / د. جمال بن فضل الحوشبي (قضايا فكرية)	٩
قلوب وذنوب / أديب إبراهيم الدباغ (أدب)	١٣
أوراق الخريف / د. حسن الأمراني (شعر)	١٥
منهاج الفاتحين / متين رئيس (تاريخ وحضارة)	١٦
الأمم بين التقوى والتكذيب / د. محمد بن إبراهيم السعيدي (قضايا فكرية)	١٩
المتسلّون بالأحلام / حراء (ألوان وظلال)	٢١
علومنا الإسلامية والسياق الكوني المعاصر (٥) / أ.د. أحمد عبادي (قضايا فكرية)	٢٢
عبرة الماضي / حراء (ألوان وظلال)	٢٤
الطيور.. هل ترى الأشياء كما نراها؟ / د. محمد السقا عيد (علوم)	٢٥
مفهوم الوسطية في تقويم الفكر واستقامة السلوك (١) / د. سعيد شبار (قضايا فكرية)	٢٨
الفن والجمال بين الرؤية الإسلامية والكلاسيكية الغربية / أ.د. بركات محمد مراد (ثقافة وفن)	٣٤
اعتبار المآل واستشراف المستقبل عند النورسي / د. عبد الكريم عكيوي (قضايا فكرية)	٣٨
الوباء بين حقائق العلم ووحي السماء / أ.د. حنفي محمود مدبولي (علوم)	٤٣
صورة جمال الخلق والإبداع / جواد محمد مصباحي (قضايا فكرية)	٤٧
كيف ينظر علماء وأكاديميّو الغرب إلى فكر فتح الله كولن؟ / هشام الراس (قضايا فكرية)	٥٠
الجذور والثمرة / حراء (ألوان وظلال)	٥٤
التراحم بين الحيوانات / أ.د. ناصر أحمد سنه (علوم)	٥٥
دردشة تحت الشمس / زبيدة هرماس (قصة)	٥٩
شفاء القلوب / د. لطف الله خوجه (تزكية)	٦١

بيان القلب ولغة الحال

إذا كان البيان مفتاحًا، فالقلب هو العالم النوراني الذي يُفتَح بذلك المفتاح. إن قيمة الكلمة تقدّر بمدى ارتباطها بالقلب. إن الألفاظ التي تتدفق عبر الفم واللسان، ما هي إلا ظلال لبيان القلب. هذا البيان الذي يعد إسقاطًا لكلام الحق سبحانه لا يستوعبه إلا من تفتّحت مداركهم، وملكوا حاسة الإصغاء إلى أنفاسه الصاعدة من أعماقه.

إن الالتزام بقواعد المنطق وضرورات الأساليب والمعاني، لها أهميتها التي لا تنكر في الصياغة الأساسية للبيان؛ كما أن الحقيقة والمجاز والتشبيه والاستعارة والكناية وأمثالها من أضرب التصوير، التي تضفي على البيان رونقًا خاصًا، وتمده بطابع مخصوص من الحسن، إنما هي من الفنون الأساسية التي تزيد التعبير ألقًا وعمقًا.

أما الجناس والسجع والاقتباس وأمثالها من "المحسّنات اللفظية" التي يعد كل صنف منها فنًّا من فنون تزيين البيان وتحبيبه إلى النفوس، إلى جانب التورية والطباق والمقابلة وحسن التعليل وأمثالها من "المحسنات المعنوية".. كلها تصبغ العبارات بألوان بهيجة رقراقة وتبلغ بها آفاقًا بديعة الجمال. بيد أن الذي ينفخ الروح في هذا البيان، ويمده بأنفاس الحياة الباقية حتى يغدو ترجمان المشاعر الجوانية، هو ارتباطه بعالم القلب.

إذا كانت الألفاظ قوالب للمعاني، فلا مناص من التسليم بما لأبواب المعاني وصور البيان وفنون البديع من أهمية، بيد أن الحقيقة التي لا مراء فيها، أن ثراء البيان واتساع معانيه، مرتبط طرديًّا بمدى العمق الذي يمتح من معينه عند انبعاثه من خلجات القلب وأعماق

الروح. إن القلوب التي تئنّ بمشاعر إيمانية فيّاضة كوتر حساس لمسته ريشة العازف، تترك في النفس أثرًا لا يمحى، وتؤسس في القلوب محبة صادقة لا تتبدل.

إن الكلمات التي لم تستطع أن تكون جزءًا من آلية الوجدان، ولم يعبر عنها القلب بلغته، ولم تصطبغ بصبغة الحال، لا يدوم تأثيرها على الأرواح طويلاً مهما اكتست من حلل البراعة وتأنقت بزينة البيان.

عالم الإنسان الجواني ينبغي أن يكون عامرًا زاهرًا على الدوام، ناصعًا طاهرًا كالمعابد، مشرَع الأبواب على مصاريعها لتجليات عرش الرحمة، مستحضرًا معية الباري ﷻ في كل حين، حتى تكون آثار المعاني والمضامين التي يرددها القلب عميقة متواصلة. وإذا كانت عيون القلب مقفلة، والروح تئنّ تحت ضغط الرغبات البدنية والنزعات الجسمانية، فكيف يرجو أصحابها أن يكون لكلامهم أي أثر؟

إن الأخيار الذين يراقبون الله في كل فصل من فصول حياتهم، ولا يغيب عن بالهم معية الله لحظة، وأنفاسهم تصعد وتهبط بمعنى قول الحق سبحانه ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ﴾، ومحيّاهم الطاهرُ يُذكّر من يطالعه بالحق ﷻ.. أولئك هم الذين يبعثون في القلوب تصديقًا وإيمانًا بقدر عمق إيمانهم هذا، وأولئك هم الذين يُشعرون بالحقائق وحقيقة الحقائق بقدر شعورهم بها، وأولئك هم الذين يتردد صدى ندائهم في القلوب على الدوام.

أما الذين لا يعلمون شيئًا عن جوهرهم الإنساني، ولا يبالون بالأعماق الكامنة في ماهيتهم، وعلاقتهم في تراجع دائم مع الله ﷻ، فمهما غرّدوا كالطيور الشادية صباح مساء، ومهما ترنموا بعبارات تضاهي الملاحم في بلاغتها، فلن يجد كلامهم إلى القلوب سبيلاً، ولن تصيب عباراتهم مواضع التأثير فيها.

قد يجيدون فنّ إلقاء الكلام، وقد يلاقون من مستمعيهم استحسانًا وإقبالاً وثناء، لكن أثر بلاغتهم في القلوب لا يدوم، ولا يوجّه الناس إلى الله ﷻ أبدًا. فالمفتاح المشفَّر الذي به تنفتح القلوب وتنقاد الأحاسيس، قد أهداه الله إلى لغة القلوب ولسان الأحوال.

لقد عجزت تلك المعلومات الجافة التي لم تنبثق

إن الأخيار الذين يراقبون الله في كل فصل من فصول حياتهم، ولا يغيب عن بالهم معية الله لحظة، وأنفاسهم تصعد وتهبط بمعنى قول الحق سبحانه ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ﴾، ومحيّاهم الطاهرُ يُذكّر من يطالعه بالحق ﷻ.. أولئك هم الذين يبعثون في القلوب تصديقًا وإيمانًا بقدر عمق إيمانهم هذا

من صميم القلب والوجدان عن الوصول إلى أي قلب. لقد خدعوا أنفسهم وخدعوا غيرهم من ظنوا أنهم قد حققوا شيئًا بتلاعبهم اللغوي وبيانهم المراوغ الذي يستفز الغرائز ويثير الأهواء. لقد فاتهم شرفُ أن يكونوا صدى يتردد في القلوب ونفَسا تحيا به الأرواح.

إن الصوت والنّفَس، واللسان والشفة، والقلم والإصبع، ما لم يكن ذلك كله تحت إمرة الأحاسيس الداخلية، فلن يبلغ الكلام قيمته الحقيقية. ففرسان القلوب هم من يسعون دومًا لإكساب الكلام قيمته الحقيقية؛ ينصبون شباكهم لاصطياد الأحاسيس الداخلية دائمًا، واقتناص المعاني المنبثقة من أعماق قلوبهم. يُوصِدون أبوابهم في وجه كل تصور ليس حاصلاً على تأشيرة من آلية الوجدان، ويهملون الكلمات ويطرحون الأصوات التي لم تنبع من صميم قلوبهم في زوايا نائية من عوالمهم الداخلية حتى تتعرض للنسيان، مهما كانت روعة نغماتها في الأفواه ومهما كان جمال وقعها على الآذان. يقفون بالمرصاد إزاء هذا النوع من الأحاسيس المشوبة في مراقبة صامتة.

ديدنُهم إيثار المعاني التي تأكدوا أنها نبعت من قلوبهم حقًّا، ونطقوا بها خالصة لوجهه تعالى دون أي شائبة. يؤثرونها حتى لو بدت سمًّا زعافًا في ظاهر النظر.. يفضّلونها على ماء الكوثر إن لم ينبثق من لسان القلب ولم يصطبغ بصبغة الحال. لا مطمح لهم في أي حظ نفسي أو متاع جسماني. يلاقون ألف لون ولون من المظالم والحرمان أثناء سيرهم في الدرب الذي آمنوا به، ومع ذلك لا ينحرفون عن الاتجاه الذي تشير إليه بوصلة قلوبهم. إنهم على استعداد تام لنسيان

hiragate.com

أنفسهم نسيانًا كاملاً، بل على استعداد تام أن تُحذَف أسماؤهم من التاريخ فلا يأتي ذكرُهم على لسان أحد أبدًا. أولئك لا يبتغون اسمًا ولا نيشانًا، ولا شهرة ولا جاهًا، ولا ثروة ولا أموالاً. أولئك لا يَجِدون على أحد مهما قوبلت خدماتهم بجحود مستمر ومهما تعرضوا لحرمان متواصل، ولا يتّهمون أحدًا بالخذلان وعدم الوفاء. يفعلون ذلك إكرامًا للعقيدة التي ينتمون إليها، ويقينًا منهم أن تلك المنغّصات من لوازم الطريق، فيقابلون بكلمة "سلامًا" كافة السلبيات التي تعرضوا لها، مصممين على مواصلة السير في طريق الأنبياء.

هذا دأب جميع طلبة القرآن عبر التاريخ، هكذا فكروا دومًا، وساروا في هذا المسار. إن سالكي هذا النهج النوراني بالأمس واليوم، قد أقسموا أن يقتفوا أثر الدليل الخالد ﷺ، لهذا الطريق.. ترددت أنفاسهم بالمحبة، وتمتمت ألسنتهم بعبارات الود للآخرين، واحتضنوا الجميع مغمورين بروح الأخوة، واعتبروا الكون ربوع إخاء كما يقول بديع الزمان.. تحدثوا بلسان قلوبهم حينما نطقوا، ولوّنوا أحاديثهم بصبغة الحال، فوصلوا إلى النقطة التي تفصل الفانين عن الباقين، ورسموا صورة فريدة بأحاسيسهم وانفعالاتهم تلك.

هؤلاء يستشعرون روحَ الكون ومعناه كافة في أصغر إشارة تتبدَّى لهم، يرسمون إحساساتهم عبر إيماءات تلوح في وجوههم ومعان تترقرق في عيونهم؛ يشعرون بأسرار الوجود العميقة بحدس لدني، ويسعون إلى أن يتذوق كل من يلتقيهم من تلك المعاني المنهمرة على تلال القلب كأنها موائد سماوية.. يتجولون في الأودية واديًا واديًا، يبحثون عن قلوب يقدمون لها مكرمات جمالية اهتزت وربت في ربوع إيمانهم.. كلما التقوا بروح متفتحة، أهلَّ في سمائهم عيدٌ بهيج. البراءة والعفاف سمة مشاعرهم.. بلا ادّعاء هم حتى إن تحققت أعظم الإنجازات على أيديهم، فقد أغلقوا أبوابهم إزاء أدنى مطمح أو تشوف، ومع ذلك يفيضون سرورًا ويتوقدون شوقًا وحماسًا.

إنهم يبحثون عن سرٍّ ليل نهار.. حلمهم الأكبر أن يتقاسموا أسرارهم.. يحاولون أن يشعلوا جذوة القلوب بما يضطرم في نفوسهم من مشاعر. يقدمون للقلوب المتفتحة ألحانًا من العواطف والأفكار والأصوات والإيقاعات لم يعرف القلم إلى كتابتها سبيلاً. تخفق صدورهم مدفوعين بشوق المهامّ التي يقومون بها؛ لا يأس ولا أسى، لا تردد ولا انكسار؛ يرتشفون النشوة من قلب الجهود التي يبذلونها، ولا يبتغون أجرًا آخر كما يفعل محرومو القلب وبؤساء الروح. بسخاء يبذلون الروح التي أنضجوها في قلوبهم.. بسخاء يتقاسمون ذلك المعنى وتلك المعرفة والمحبة التي لا يرتوي من لذتها المرء مهما نهل منها. لا يفلت أحد من تأثير تلك الأصوات الساحرة حينما تتدفق كشلال من السكينة في سفوح قلبه، ما لم يحمل فكرًا مسبقًا.. لا أحد يقاوم تلك المعاني اللدنّية التي تغزو القلوب ويتجاوب صداها في أعماق الإنسان.

لا أحد يستطيع أن يقف إزاء تلك الكلمات النابعة من أعماق القلب، والتي تعد تجليًا لما تنزّل من السماء دون أن يهتز لها أو يتأثر منها. إن درر البيان تلك، المنبثقة من القلب والمتسامية "حالاً" إلى أفق سامق آخر، سوف تترك تأثيرها على القلوب المتفتحة لا محالة، إن لم يكن اليوم فغدًا، وسوف تفرض سلطانها على أنظمة وجدانهم بكل أبعادها.. بعدها سيأتي يوم تقفز فيه كل هذه الواردات التي اختمرت في اللاشعور إلى العلن بمجرد لمسة بسيطة، وتتحرك لتصبغ الجميع -حتى الأرواح البعيدة- بصبغتها الخاصة.

أجل، إن الكلمات التي تُصاغ اليوم بلسان القلب، والعبارات التي تحاك بنسيج الحال، لا تضيع أبدًا؛ بل تحفظها الأذهان اليوم كما تحفظ الأقراصُ الصلبة المعلومات، الشعورُ يقيّمها، والعقل يغذّيها وينمّيها، ويفرغها في قوالب وأشكال جديدة، ويتركها وديعة حتى يأتي وقتها الموعود. وعندما يحين موسمها يصدح القلب بلغة عجيبة ومعان ساحرة لم تسمعها أذن من قبل، ويعرض الحالُ جمالاً نادرًا لم تشهد العين لمثله نظيرًا، يخاطب الأرواح، فيترك فيها آثارًا لا تنمحي أبدًا. ■

(*) نشر هذا المقال في مجلة ياغمور التركية، العدد ٢٩،السنة ٢٠٠٥م. الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

hiragate.com

أ.د. عرفان يلماز*

التمساح يروي حكايته

مرحبًا عزيزي الإنسان.. أنا التمساح؛ من أضخم الزواحف على وجه الأرض، وصاحب أقوى فكٍّ بين الحيوانات. ولكن لا تخف.. ما جئتُ لإيذائك، بل لأحدثك بلطف ولين، وأقص عليك مغامراتي في هذه الحياة، ومن ثم أكشف لك عن الحقائق المخفية في ثنايا جسمي. ثم إني لستُ جائعًا الآن، لذا كن مطمئنًّا، وركّز على ما سأقوله لك فقط.

ننقسم -نحن التماسيح- إلى ٢٣ نوعًا، ونتوزع على ثلاث عائلات (Alligatoridae, Crocodylidae, Gavialidae)، تتميز كل عائلة عن الأخرى بطريقة تماسّ أسنانها عند إطباق فكّيها العلوي والسفلي. لعل شكلي الخارجي يدفعك إلى أن تشبّهني بسحلية ضخمة، أو بديناصور صغير.. لا ضير، ولكن يكفي أن تعرف أن الهيكل التشريحي لجسمي يختلف تمامًا عن أجسام السحالي.

صحيح أن ربنا سبحانه وهبنا -نحن الزواحف- جلودًا جافة قوية وغطاها بخراشيف صنعها من الكراتين، ولكنه -أيضًا- أعطى كل نوع منّا خاصية يمتاز بها عن الآخر.

أجل، نحن التماسيح من أضخم الزواحف الحية. لا يغرّنك شكلي الضخم وأنا أستريح على شاطئ النهر، فحركاتي أكثر انسيابية ومرونة في الماء. سرعتي تصل إلى الكيلومترين في الساعة الواحدة، وبإمكاني أن أزيد على هذه السرعة، أثناء الصيد في المسافات القصيرة. يساعدني في ذلك، ذَنَبي بعضلاته القوية، حيث يعمل كالمحرّك أو المروحة الدافعة. ولكن إذا ما خرجتُ من الماء أفقد هذه الانسيابية؛ حينها، أرفع ذَنَبي وجسمي عن الأرض، وأبدأ أمشي على الأقدام ببطء ولكن

بالقرب من الماء. أفضل المستنقعات والمياه الموحلة إذا أردتُ الانتقال من بحيرة إلى أخرى، لأن ذلك يساعدني على ادخار طاقتي ومنع هدرها.

أعرف أنه ما إن أُذكر أنا التمساح، حتى يتبادر إلى ذهنكم حيوان مخروطي الشكل، له أسنان كبيرة عديدة، فاغر فاه واقف كالتمثال. هذا صحيح؛ لأن الميزة المشتركة بيننا هي الجسم الطويل، والأرجل الأربعة القصيرة، والذنَب الطويل القوي.

أماميات تتحلى بخمس أصابع، وأرجلي الخلفية بأربع أصابع ذي أغشية قوية. وأما اللوائح العظميّة السميكة الكائنة تحت الخراشيف، فتقوم بدور الدرع، حيث تكسو جسمي وتحميه من نبال الصيادين ورماحهم.

لا شك أن العيش على اليابسة تارة وفي الماء تارة أخرى، يتطلب خبرة واسعة عميقة. وكذلك لا بد من بنية تشريحية قوية وسلوك فسيولوجي دقيق، للعيش في هاتين البيئتين. ولكي تستوعب هذا الكلام -عزيزي الإنسان- سأذكر لك بعض الخصائص التي تُعينني على البقاء في هذه الحياة.

إحساسي بأصغر ذبذبة

أواصل عملي في الليل أيضًا، لذا فإن جميع حواسّي خُلقتْ حسّاسة للغاية ولا سيما حاسة البصر. لقد زُوِّدت بعض الحراشيف التي تبدو ميتة في جسمي، بِلَواقط حسّاسة للغاية. فمثلاً، لدي لواقطُ لمسٍ مركّبة على جانبَي رأسي؛ قادرة على التقاط أصغر ذبذبة في الماء، وإرسالها إلى دماغي على الفور. ولدي لواقط -أيضًا- على أطراف فمي، تنقل لي المعلومات الدقيقة عن حركات الفريسة كلها. وإذا كنتُ جائعًا فحواسّي تعمل بشكل أدق من حالتها الطبيعية، إذ أستطيع في سواد الليل الكالح أن أحدد -وبكل سهولة- مكان عصفور صغير يتخبط في الماء. ولو أمعنتم النظر في كشّافات الضغط الموزَّعة على وجهي، والتي يبلغ عددها الآلاف، سترون أن كل واحدة منها بمثابة مضخات صغيرة بحجم رأس قلم الحبر. وبواسطة هذه اللواقط أحسّ -وأنا في الماء- بكل حركة تجري حولي وبكل سهولة.

إني أملك القدرة على تمييز الحيوان الجريح بين العديد من الحيوانات، أو تمييز الحيوان الذي يتخبط في المياه العَكِرة والموحلة في ظلام الليل. كما أحسّ من بعيد، بالحيوانات التي تستحمّ على ساحل المستنقع، أو التي تشرب الماء، فأتسلل نحوها مثل قُرْمَة الخشب، مبقيًا رأس أنفي وعينَيّ فقط خارج الماء حتى لا تراني، وعندما أقترب جيدًا من بقر الوحش -على سبيل المثال- أنقض على عنقها بسرعة فأمسك بها وأشدها إلى الماء لتَغرق.

عيوني آية في الإبداع

وُضعت عيوني داخل حفرتين مقاومتين للضربات على جانبَي جمجمتي. فعيوني تظل ثابتة دون حراك داخل هاتين الحفرتين. ولعل السبب هو حِفظها -هي ودماغي- من الأذى حين العضّ الشديد بفكيَّ القويين. فأحمد الله على هذه النعمة التي لا تقدّر بثمن.

حدقة عيوني تكون عمودية في النهار مثل عيون القطط، وفي الليل ترتخي لتصبح كروية تستقبل أشعة الضوء بنسبة أكبر. خلف شبكية عيني، طبقة لامعة سوداء تسمى بـ"البساط الأسود" (Tapetum Nigrum)؛ خُلقتْ هذه الطبقة لتعكس الضوء على عيني وتزيدها لمعانًا، فأتمكن -عندها- من الرؤية في الليل الكالح وبمنتهى البساطة. إن المدبّر الحقيقي والصانع الحكيم، خلق لمعظم الحيوانات جفونًا علويةً وسفليةً تحمي عيونها من المخاطر والمؤثرات الخارجية، ولكن عندما تنغلق هذه الجفون، ينقطع مرور الضوء إلى العين فتنقطع الرؤية. ومن ثم فإذا أغلقنا عيوننا تحت الماء ا نستطيع رؤية الفريسة؛ وأما إذا أبقيناها مفتوحة، فذلك يؤدي إلى انخداشها وتأذّيها حين نكون في صراع مع فريستنا. فمن أجل الحماية، خلق لنا ربنا غشاوة شفافة ثالثة تنغلق من الأمام إلى الخلف، تحمي العين وتساعدنا على الرؤية تحت الماء.

"دموع التماسيح"

تستخدمون -أنتم البشر- مصطلح "دموع التماسيح"، لوصف المخادعين الذين يسيئون من جانب ويصطنعون البكاء من جانب آخر، ولكن هذا مصطلح غير صحيح.

hiragate.com

فكل ما في الأمر أني عندما أتهيأ للانقضاض على الفريسة، أنتج طاقة هائلة؛ ولأن جلدي متكون من طبقات سميكة وخراشيف صلبة، ولأني لا أملك في جلدي غددًا تفرز العَرَق؛ فإن العرَق الذي أفرزه يخرج من منطقة واحدة وهي عيوني. أو عندما أفتح فكّي الطويل، تضغط مفاصله على الغدة الدمعية بقوة فتتساقط الدموع بكثافة من عيني ويبدو كأني أبكي. كل ذلك يعني أني أفرز الدموع فقط ولا أبكي.

جهاز التنفس وحواسّي الأخرى

لقد وُهبتُ حاسةَ سمع غاية في الدقة. إن قنوات أذني الخارجية، مسدودة بغطاء جلدي يحول دون تسرّب الماء إلى الأذن. أما خياشيمي التي تقع على رأس فكي العلوي، فهي على شكل نصف دائرة مسدودة بغطاء، فعندما أغطس تحت الماء، تنسدّ هذه الخياشيم بإحكام ويُمنَع بذلك نفوذ الماء إلى الداخل. وقد تنسدّ منافذ الماء بانسداد صمام بداخل الفم حتى لا يدخل الماء إلى الرئتين. إذ حينما أكون في الماء لا أستطيع إغلاق فمي جيدًا لعدم وجود شفاه، إنما يوجد بفمي ما يشبه السدادة التي تحول دون دخول الماء إلى حنجرتي. وهذا يمكّنني من البقاء تحت الماء ما يزيد على ساعة بلا تنفس، ونحو عشرين دقيقة حين أكون في صراع عنيف مع فريستي، أحاول إغراقها تحت الماء، دون أن أغرق أنا وأموت.

أجل، إن طريقة التنفس لدي عجيبة للغاية؛ فمن أجل أن تمتلئ الرئتان بالأكسيجين جيدًا، فالعضلات التي تربط أضلاعي، قد اتصلت أيضًا بمنطقة بطني، وبذلك يقوم كبدي بالصعود والهبوط -مثل المكبس- ليساعد الرئة في عملية التنفس.

الصيد وعملية الهضم

عندما أتحفّز للصيد، أختبئ جيدًا، وعلى حين غرة أنقضّ على الفريسة، ولكن إذا أخفقتُ في المحاولة الأولى، فذلك يعني نجاة الفريسة وخلاصها مني؛ لأن نظام الأيض عندي، مبرمج على عدم الاستطاعة على المطاردة لمدة طويلة، ولأن حامض اللبنيك يتراكم بكمية كبيرة في عضلاتي.. وهذا يُجبرني على الاستراحة

إلى حين تنقية حامض اللبنيك والأكسجين من دمي. واستراحتي هذه -في حقيقة الأمر- نعمة للمخلوقات كلها؛ إذ لو لم أقف لأستريح، لكنت أشرس الحيوانات على وجه الأرض لا أترك كبيرًا ولا صغيرًا يرتاح من شري. ولا شك أن الحكمة في ذلك، هي المحافظة على التوازن البيئي من جانب، وإعطاء حق العيش للمخلوقات الأخرى من جانب آخر.

أقوم في بعض الأحيان بالاقتراب من ضفة النهر أو المستنقع إذا رأيت حيوانًا هناك، وعلى حين غرة أرفع ذنَبي القوي وأضربه بشدة حتى أسقطه في الماء وأمسك به. وبالتالي أستطيع ابتلاع الفريسة الصغيرة بدفعة واحدة، أما الكبيرة فأستأصل أجزاءها بفكّيّ القويَّين وألتهمها دون مضغ؛ لأن معدتي تقوم بإفراز حمض قوي يهضم حتى الحجر، وشظايا الزجاج، والعظام، والقصدير، وكل شيء.. تمامًا مثلما تحطم الطاحون الدقيق بسهولة. ولأني آكل فرائسي تحت الماء، فلا أحتاج إلى غدد لعابية. ولأن دمي بارد، فإن النشاط الأيضي لجسمي يكون تحت السيطرة تبعًا لدرجة حرارة الهواء؛ إذا انخفضت درجة الحرارة تحت ١٦ درجة، فتتباطأ عملية الأيض عندي، وتتعطل كل الأعمال التي أقوم بها؛ لأن انخفاض الحرارة يعطِّل الأنزيمات ويجعلها غير قادرة على العمل. ولكن أشعة الشمس تنقذني من هذه الحالة الحرجة؛ حيث يدفأ جسمي ويزداد معدل الأيض عندي من جديد فأستجمع طاقتي التي كنت عليها سابقًا. ولكن إذا كانت معدتي ممتلئة وانخفضت الحرارة فجأة، يؤدي ذلك إلى انخفاض

hiragate.com

الأيض عندي فتتوقف أنزيماتي الهضمية، ومن ثم يبقى الغذاء في معدتي دون هضم ويتعفن، ثم يَنتج منه سمًّا قاتلاً يؤدي إلى هلاكي. لذا فأنا مضطر إلى متابعة أحوال الجو، فإن شعرتُ بأنه سيبرد، أمنع نفسي من الأكل. وما دامت حرارة جسمي مستقرة على الـ ٣٠ درجة فأنا بخير.

يتحوّل نسبة ٦٠٪ من الغذاء الذي أتناوله إلى دهون أختزنها في جميع أطراف جسمي ولا سيما في ذنَبي وأرجلي الخلفية.. الأمر الذي يساعدني على مقاومة الجوع، والبقاء على قيد الحياة شهورًا حين انخفاض درجة حرارة الجو التي تسبِّب لي انخفاض الأيض. وأحيانًا أصبر دون طعام لسنتين كاملتين.

استمرار نسلي

إن ذكورنا متعددة الزوجات.. وإننا نعرف بعضنا البعض برائحة خاصة نفرزها. تضع إناثنا ٢٠-٥٠ بيضة في المرة الواحدة، ويصل هذا العدد في بعض أنواعنا إلى ١٠٠ بيضة؛ حيث تحفر حفرة على الساحل وتبيض فيها، ثم تغطي البيض بالأعشاب أو الوحل. والملفت للنظر أن هذه الأعشاب تلعب دورًا مهمًّا في الحفاظ على البيض، فتمنعها من الفساد من جانب، ومن جانب آخر تنمّي الجنين داخل البيضة بالحرارة الواصلة من الشمس والدفء الناشئ من اختمار النبات واضمحلالها. تبقى الأم بالقرب من العش حتى يفقس البيض، وعندما يحين آوان الفقس، يُصدر الجنين صوتًا من داخل البيضة، وما إن تسمع الأم هذا الصوت حتى تسرع إلى رفع الأعشاب أو الوحل عنها. والغريب أن هذا الجنين وُهب سنًّا فوق فمه يكسر به قشرة البيضة ويخرج منها، بعد ذلك تقوم الأم بحمل أفراخها داخل فمها إلى الماء.. تقوم إناثنا بهذه العملية كل سنة دون كلل ولا ملل.

لدينا -نحن التماسيح- خاصية أخرى غريبة، وهي أن جنس أفراخنا تحدد وفقًا لدرجة حرارة البيض عند التفريخ إما ذكرورًا وإما إناثًا؛ فإذا تجاوزت درجة حرارة البيضة ٣٤ درجة فهي ذكر، أما إذا كانت ٣٢ درجة فهي ٥٠٪ ذكر و٥٠٪ أنثى، أما إذا كانت حرارة البيضة تحت ٣٢ درجة فيعني ذلك أن الفرخ أنثى. لقد خُلقتْ جلود أفراخنا باللون الأصفر والأسود، مما يساعدها على التمويه من أجل البقاء على قيد الحياة. وخلال ٧-٨ سنوات تكبر هذه الفراخ وتخوض غمار الحياة بمفردها. إننا نحن التماسيح نقضي في هذه الحياة عمرًا يتراوح بين ٤٠-٦٠ سنة.

نعيش نحن التماسيح في المناطق الاستوائية.. أكبرنا حجمًا هو "تمساح النيل"، ويعيش في نطاق واسع من أنحاء أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، يصل طوله إلى ٦-٧ أمتار، ووزنه إلى ١٠٠٠ كغ، كما يتمتع بـ ٦٤-٦٨ سنًّا في فكّيه.

يؤسفني القول بأن ألدّ أعدائي أنتم أيها البشر.. إذ يصطادنا بعضكم ليأكل لحومنا، وبعضكم الآخر ليصنع من جلودنا الحقائب والأحذية الجلدية، ليبيعها بثمن باهظ إلى الأغنياء في العالم. لن أسامح هؤلاء أبدًا على فعلتهم هذه.. ولكن موضوعنا ليس هذا الآن.. لذا أكتفي بهذا القدر من الكلام، لأبقي مساحة للصور عني وعن أشقائي الآخرين. أرجو أن أكون قد أفدتك بهذه المعلومات التي لا بد وأن تأخذ كل صاحب عقل إلى عالم التفكر والتأمل في ملكوت السماوات والأرض. أستودعك الله، وإلى اللقاء. ■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: محمد مراد.

hiragate.com

د. جمال بن فضل الحوشبي*

السلوك الإنساني في القرآن

بين ضوابط الإرادات ودوافع القيم

من أنبل الدراسات الإسلامية وأهمها؛ تلك التي تتعلق بالنفس البشرية التي ورد ذكرها في ٢٩٥ موضعًا من القرآن الكريم، وجاء التأكيد على أهمية تزكيتها بعد أطول قسم في الكتاب العزيز. غير أن علم النفس المعاصر ارتبط ارتباطًا وثيقًا بالدراسات الغربية والشرقية البعيدة عن القرآن الكريم والسنة المطهرة، ولا تكاد الدراسات النفسية تُذكَر إلا وتبادر للأذهان نظريات علم النفس، ومجالاته، والصراع المحتدم بين مدارسه المختلفة.

لقد تنقّل "علم النفس" عبر محطات كثيرة قبل أن يستقر مؤخرًا في مجال "السلوك" فهمًا وتحكّما، وتنبؤًا وتعديلاً؛ لتصبح دراسة السلوك المحصّلة النهائية في دائرة اهتمامه.

وخلال رحلته الطويلة ظل علم النفس يتنقّل بين فرضيات ونظريات شتى؛ بحثًا عن فهم أدقّ للنفس البشرية، بدأت بمباحث حول الرّوح وحقيقتها، ثم الفلسفة وبعدها النّفس ذاتها، ثم

العمليات العقلية التي انتقل منها إلى الإحساس والحواس الظاهرة، ومنها إلى مباحث الشعور واللاشعور، ثم إلى العقل الباطن، ليستقر أخيرًا مع السلوك! وهي الرحلة الشاقة التي عبّر عنها "روبرت ودورث" (Robert Wood-worth) بقوله: إن علم النفس فَقَدَ "روحه"، ثم فقد "عقله"، ثم فَقَدَ "حسّه"، ثمّ فَقَدَ "شعوره"، ثم فَقَدَ "لا شعوره"، ثم لم يبق منه إلا "السلوك الظاهري"[1].

بين مفهومين

على الرغم من استقرار علم النفس المعاصر في مجال السلوك، إلا أن الوجهة التي ظلّت تولّيها نظريات السلوك في الدراسات النفسية لم تستقر لحظة؛ ذلك أنها تأثرت برياح التغيير الناتجة عن السباق السياسي المحتدم بين الشرق والغرب آنذاك، فكلما ظهرت نظرية شرقية في جانب من السلوك، أعقبتها نظرية أخرى من الغرب تنافسها وهكذا.

ومَن قُدّر له أن يتعرف على حقيقة علم النفس المعاصر ثم انتقل إلى الدراسات النفسية الإسلامية، وجدها القادرة على تملّك زمام الريادة بدون منازع، والمؤهلة لتقييم سائر النظريات النفسية المعاصرة. والسرّ يكمن في أنّ هذه الدراسات بدأت كاملة، وواضحة، ومحدّدة منذ انطلاقتها الأولى، ولم تضطر إلى ذلك التنقل الطويل في مجالات النفس البشرية.

وفي هذا المقال جملة من المفاهيم النفسية الإسلامية حول بواعث السلوك الإنساني ودوافعه الكامنة، وسنفرد مقالاً آخر لتناول مجالات استصلاح السلوك الإنساني وعلاج انحرافاته إن شاء الله تعالى.

السلوك بمفهومه النفسي المعاصر

على الرغم من أن "تزكية النفس" تمثل المجال النفسي القرآني بامتياز حيث لا تنافسه فيه أي مدرسة نفسية أخرى، إلا أن هذا المجال لا يمكن فهمه بدون الرجوع لدراسة السلوك الإنساني بمفهومه المعاصر، للتعرف على الحلقة المفقودة.

إن الباحث في الدراسات النفسية يظهر له استحالة تسلّم الدراسات الإسلامية النفسية المعاصرة راية "السلوك الإنساني" من نِتاج النظريات النفسية المعاصرة؛ لأنها عاجزة -حتى الآن- عن إيجاد فهم دقيق وواضح لحقيقة السلوك الإنساني نفسه، رغم اهتمامها به، وحديثها عنه، وبناء نظرياتها حوله لفترة طويلة.. بالإضافة لعدم قدرتها على اتخاذ قرار التحول عنه إلى غيره من مجالات النفس المتعددة. والسبب عائد لطبيعة الاحترازات في المنهج العلمي -كما سيأتي- إضافة لضبابية الرؤية المادية للنفس البشرية، والفواصل الدقيقة غير الواضحة بين علم النفس وغيره من العلوم الإنسانية.

لقد أصبح علم النفس في محطته الأخيرة أضعف من أي وقت مضى، وبات عاجزًا عن تقديم المزيد؛ لكثرة ما فَقَدَ من خصوصياته، والتداخلات الكثيرة مع العلوم النفسية الأخرى التي انتزعت منه قسرًا مباحث كان يفخر بها.

وحين نقوم باستعراض المحاولات التي قدّمها علم النفس المعاصر لتعريف السلوك الإنساني، نجدها تدور حول مفهوم واحد يتمثل في التفاعل الذي يحكم الاستجابات الصادرة من الكائن الحي، مع المواقف البيئية والاجتماعية المحيطة به. وهو ما يفسر السبب الذي جعل السلوك الإنساني في الدراسات النفسية المعاصرة يقبع متمحورًا حول شكله الظاهري المادي فحسب، ولا يكاد يخرج عنه.

مقدمة أم نتيجة؟

بعيدًا عن التعقيد والغموض الذي يكتنف "حقيقة" السلوك الإنساني في علم النفس المعاصر، نجد أن الوضوح يظهر في حديث القرآن الكريم عن النفس البشرية عمومًا، وبخاصة عند التأكيد على خفاء حركتها، وعظيم تأثيرها على الاستجابات الظاهرة التي لا يمكن فهمها بمعزل عن القيم والبواعث الكامنة التي تنطلق منها، سواء أكانت قيمًا مستقيمة سليمة أم مشوّهة سقيمة.

والسلوك الإنساني الظاهر -من منظور السنة المطهرة- يتم التعامل معه بكونه نتيجة تتحكم فيها عوامل خارجية عدة، ومؤثرات داخلية أقوى تتمثّل في القيم والإرادات الكامنة، قال ﷺ: "إنما الأعمال بالنيّات وإنما لكل امرئ ما نوى؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله

hiragate.com

فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه" (رواه البخاري).

وهذا الحديث الشريف المنيف أصل في دراسة علم النفس.. فهو يتناول الفرق بين إرادتين مختلفتين لعمل واحد، ويفرّق بين المهاجرين، لا بسبب حركتهم الظاهرية المتمثّلة في السير الطويل وتحمّل المشاق والتعب، وإنما بسبب الباعث لهم؛ فهذا مهاجر إلى الله ورسوله، وذاك مهاجر لأمّ قيس التي ما أراد من هجرته إلا أن يتزوّجها.

كما يفرّق الحديث الشريف بين العوالم الثلاثة للنفس البشرية:

١- عالم الانبعاثات الكامنة، المتمثلة في القناعات والإرادات، والدوافع المحركة للفعل أو عدمه.

٢- عالم "النوايا"، وهي الاستجابات الصادقة لتلك الانبعاثات، والتي يتشكل من خلالها العزم المؤكد على الفعل أو الكف.

٣- عالم السلوك الذي يتحقق معه الفعل الظاهر، أو الكف عنه، مع وجود دواعيه والقدرة على فعله.

ويكمن أهمية النية في أنها مرحلة وسيطة يظهر عندها بوضوح حركة العزم الصادق؛ فهو إما أن ينتقل إلى الأعلى في صورة سلوك ظاهر، أو يظل عزمًا خفيًّا حتى تتوافر أسباب ظهوره[٢]. ومن هنا فالدوافع والإرادات تمثّل الوقود الذي يتحرك به السلوك الإنساني، والنوايا بمثابة الشرارة التي تقدح تلك الإرادات، والسلوك هو الحركة الناتجة بعد ذلك.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾

تتعامل الدراسات النفسية المعاصرة مع الجزء البارز من جبل الجليد الضخم للسلوك البشري، غافلة عن حقيقة الجزء الأكبر الغائر منه في أعماق النفس. وهو ما يفسر خضوع السلوك الإنساني في هذه الدراسات للمؤثرات البيولوجية والاجتماعية الظاهرة، دون التصدي للبواعث والمؤثرات الكامنة.

ولعل اتباع "المنهج العلمي المعاصر"، سبب رئيس في إغفال الدراسات النفسية المعاصرة للمؤثرات الكامنة وعدم اعتبار أثرها في تشكيل السلوك الإنساني؛ ذلك أن

إن السلوك الإنساني لا يمكن فهمه بدون التعرف على النفس التي تتحكم في مساراته وبواعثه الأولى، ومن هنا ظهرت حاجة المتخصص في علم النفس للحقائق التي أخبر الله تعالى عنها مقرونة بالنفس البشرية.

هذا المنهج يستند على مجموع المشاهدات والتجارب، لبناء فرضيات تصلح لأن تتحول إلى نظريات تقود فيما بعد إلى حقائق. وهو بذلك لا يؤمن بالغيب، ولا يعترف بتأثير الإيمان ولا بالقيم، إلا في حدود المشاهدات والتجارب العملية.

وبما أن علم الكتاب والسنة هو المصدر لسائر العلوم الإسلامية ومنها علم النفس، فإن الحقائق التي يُخبر عنها، لا تحتاج إلى براهين سوى صحة الاستدلال من القرآن الكريم، وصحة الثبوت والاستدلال من السنة النبوية.

وحين يتعلق الحديث عن "النفس البشرية"، فإن خصوصية الرجوع للكتاب والسنة تكون أظهر وأشهر؛ لأن السلوك الإنساني غير السوي متقلب ومعقّد بطبعه بخلاف الظواهر الكونية، ولأن معرفة الحقائق النفسية الكامنة تفتقر إلى الرجوع للعليم بمكوناتها، والخبير بمؤثراتها سبحانه، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(الملك:١٤)، وقال جل شأنه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾(الشمس:٧-١٠)؛ فأقسم سبحانه بـ"النفس"، مقرونة بذاته العليّة جل شأنه، لتأكيد تمام علمه بها، وإحكام خلقه لها بما يعينها على أداء مهمتها.

إن السلوك الإنساني لا يمكن فهمه بدون التعرف على النفس التي تتحكم في مساراته وبواعثه الأولى، ومن هنا ظهرت حاجة المتخصص في علم النفس للحقائق التي أخبر الله تعالى عنها مقرونة بالنفس البشرية، ومنها:

أ- أن الله سبحانه خالق هذه النفس بصفاتها البديعة التي لا يُرى إلا آثارُها، ولا يعرف كُنه خلقها إلا هو سبحانه، قال تعالى: ﴿مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ

hiragate.com

وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾(الكهف:٥١)، وقال سبحانه على لسان عيسى عليه السلام: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾(المائدة:١١٦).

بـ- خضوع هذه النفس المطلق لربها، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾(الرعد:٤٢)، وقال سبحانه في آية أخرى صريحة: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾(الرعد:٣٣).. فهو سبحانه قائم على كل نفس؛ يُحصي عليها جميع ما تعمل.

جـ- علمُ الله تعالى بضعف النفس البشرية؛ ولذا لم يكلّفها من الأعمال ما لا تطيق، قال سبحانه: ﴿وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾(المؤمنون:٦٢).

د- قابلية هذه النفس للتغيير نحو الأحسن أو الأسوأ، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١).

هـ- قوة تأثير النفس على السلوك الظاهر، كما قال تعالى على لسان السامري: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾(طه:٩٦).

و- حاجة هذه النفس إلى عصمة ربها حال اضطرابها وانحراف سلوكها الظاهر، قال سبحانه على لسان امرأة العزيز: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(يوسف:٥٣).

فإذا كان هذا شأن النفس وتأثيرها على السلوك، فإن مسار الحديث عنه لا بد أن يقود للحديث عن "النية".

النية موجّه السلوك الأكبر

تتحرك التربية الإسلامية وفق مسارين اثنين؛ مسار تحويل الإرادات الكامنة إلى نوايا صالحة، ومسار تحويل السلوك الظاهر إلى عمل صالح، ولا يخرج عنهما شرطا قبول العمل في الإسلام؛ الإخلاص لله تعالى، والمتابعة للنبي ﷺ.

والفارق بين التربية الإسلامية الراشدة وبين غيرها، يكمن في إضفاء الحقائق الإيمانية للإرادات والسلوك والاحتياجات الإنسانية؛ فهي من جهة تقوم بإشباع حاجات الإنسان الفطرية من أكل، وشرب، ونوم وجنس، وغيرها.. لكنها -من جهة أخرى- ترتفع بها صوب كمالات التكريم الإنساني المتصل بمرضاة الله تعالى، وتقوم بتوجيهها لتصبح لها إرادات صالحة يتقرب بها العبد إلى ربه، شأنها شأن العبادات الأخرى من صلاة وصوم وصدقات ونحوها.

ومما يظهر المنزلة الكبرى للنية الصالحة في الإسلام، دخولها في سائر العبادات؛ إذ لا عبادة صحيحة بدون نية، ودخولها في كثير من المعاملات، وبها ينتقل العمل من حيّز الواجب إلى السنّة والعكس. عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "ما من عبد كانت له نية في أداء دَينه، إلا كان له من الله عون" (رواه الإمام أحمد)، وقال ﷺ: "اليمين على نية المستحلف" (رواه مسلم).

وفي حديث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حركة مضادة ينتقل بها العمل الصالح إلى عالم الخفاء بهذه النية الصالحة بدلاً من ظهوره، كما في حديث الهجرة، قال ﷺ: "من رأي منكرًا فاستطاع أن يغيّره بيده فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان" (رواه أبو داود).

ومن هنا كانت تربية النفس على بعث النوايا الصالحة عبادة مجردة بذاتها يُثاب المؤمن عليها؛ إذ يكفيه أن يعزم عزمًا صادقًا على فعل طاعة ما، أو الكفّ عن معصية ما، ليكتب الله تعالى له ثواب تلك العبادة وإن لم يفعلها، قال ﷺ: "إن الله تعالى كتب الحسنات والسيئات ثم بيّن ذلك، فمن همّ بحسنةٍ فلم يعملها كتبها الله تعالى عنده حسنة كاملة، فإن همَّ بها فعملها كتبها الله تعالى عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن همَّ بها فعملها كتبها الله تعالى سيئةً واحدة، ولا يهلك على الله إلا هالك" (متفق عليه). ■

(*) المشرف العام لمركز رؤية الثقافي بـ"مكة المكرمة" / المملكة العربية السعودية.

الهوامش

(١) روبرت ودورث، مدارس علم النفس المعاصرة، ترجمة: كمال دسوقي، ط١، دار المعارف بمصر.

(٢) النية في حقيقتها عزم القلب وميله.

hiragate.com

أديب إبراهيم الدباغ*

قلوب وذنوب

غشيتنا غاشية الذنوب، وأحدقت بنا الخطوب، حتى أكلت منا القلوب، وأسقمتْ منَّا النفوس، فجَفَّ الينبوع على الوارد العطشان، فاصفرَّ غصنه الأخضر الريَّان، وغدتْ الأفنان الميَّادة حطبًا للنيران.. مما جعل طير الأشواق يفرش جناحيه ويغادر المكان، أما بلبل الوجد الصدَّاح فقد غاب هو كذلك وراء الآفاق.

وتراكمت الذنوب وعلاَ بعضها فوق بعض، فَسَدَّت المنافذ على الغيوب وأوصدت الأبواب دون عوالم الملكوت.

فغدونا للأرض خدَّامًا، وبالهابطات منها والسفليات متعلقين، نعجن بشريتنا بطينها الآسن، ونطعم عقولنا بكل سفساف وتافه وعقيم.

وقلب الكون الخفَّاق لم يعد يستقبل لوعات قلوبنا وأشواق أرواحنا كما كان يستقبلها من قبل وهي في طريقها إلى عوالم الملأ الأعلى.. وحتى عيون الليل زاغتْ دَهِشَةً وهي تفتش عنَّا لعلَّها تلقانا رُكَّعًا سُجَّدًا كما اعتادت أن تلقانا في سالف الأزمان.

وأسماع الليل لم تعد توقر بأنَّات أرواحنا الباكيات الشاجيات، وَهُنَّ يتسلقن أسوار العَتَمَات في الليالي الداجيات، مُحَمَّلاتٍ بالمواجيد والأشواق وقد أَضْنَاهُنَّ البعاد، وأسقمهنَّ الصدود والهجران.

قلوبنا -يا صاحبي- ليستْ ملكًا لنا، فلا ينبغي أن ندعها ملعبًا لعواصف الذنوب والآثام، تتلاعب بها ثُمَّ تخطفها وتهوي بها إلى أي مكان سحيق من الإثم والفسوق والعصيان.. إنها ملك الله، هو الذي سبحانه وضعها في صدورنا لتكون موضع نظره ومأوى تجلياته ومخاطباته ومركز إلهاماته.. ومن هنا كان دم المؤمن أشدّ حرمة من حرمة الكعبة المشرَّفة عند الله تعالى، وكما ورد في الأثر "ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن"، ليس من أجل وجوده المادي والطيني، بل من أجل القلب الذي يحمله في صدره، لأنه كما الكعبة هي بيت الله، فكذلك قلب المؤمن هو بيت الله، بل عرشه في عالم الإنسان، والمنزل الذي ينزله متى شاء وبالكيفية التي يشاء، فوجب أن يكون طاهرًا نظيفًا مبرءًا من الآثام والشرور، لكي يكون جديرًا باستقبال تجليات ملك الملوك، أو إذا تلطف على عبده بنظرة أو لمحة.

كما الكعبة هي بيت الله، فكذلك قلب المؤمن هو بيت الله، بل عرشه في عالم الإنسان، والمنزل الذي ينزله متى شاء وبالكيفية التي يشاء، فوجب أن يكون طاهرًا نظيفًا مبرءًا من الآثام والشرور، لكي يكون جديرًا باستقبال تجليات ملك الملوك.

لا تكن للقلب معطِّلاً وبه مستهينًا، فصلاح بشريّتك بصلاحه، بل صلاح العالم بصلاحه، منه تتفجر ينابيع الرحمة وتتدفق سيول الحب والإشفاق، وبه تقوم كوابح الضمير، وتشتعل منائر الهدى، وتضيء سبل الرشاد، وتعلو هامات البطولات، وتنشأ العبقريات، وعليه تتنزَّل النبوات والرسالات.. فنحن نكافح بالكلمة والقلم لإنشاء أمثال هذه القلوب في الصدور، قلوب عصية على الذنوب، تتعشق الطهر والنقاء وتتسامى إلى العلاء.. قلوبٌ نيران أشواقها لا تنطفئ، فهي سرمدية اللوعات والأنات، يموت صاحبها ويقبر بينما يظلُّ قلبه يردد في قبره: الله، الله، الله، إلى يوم البعث العظيم.

فنبضات قلبك -يا مؤمن- تتصادى في نبضات قلب الوجود، لا بل هو يستمد من قلبك نبضاته. فلولاك ما قام للوجود مقام، ولا وجد له مكانًا. فالقلب البشري أسبق في الخلق من قلب الوجود، فمنذ سأل الله تعالى البشرية وهي في عالم الذر "ألست بربكم" فأجابت القلوب "بلى"، لذلك فهو مسخر لك، وقائم في خدمتك، وما معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إلا مظهرًا من مظاهر هذه الخدمة، واستجابة لإرادات القلوب النبوية الشريفة والطاهرة. ومن هنا يمكن أن نفهم الحديث -إذا صَحَّ- "لولاك لولاك لما خلقتُ الأفلاك"؛ فالأفلاك -حسب منطوق الحديث- خلقت من أجل أكرم المرسلين على الله ﷺ، ومن أجل قلبه الطاهر المشرف بالنبوة والرسالة.

فقلب "النبي" عليه أفضل الصلاة والتسليم وقلب الوجود يتساقيان فيما بينهما المعارف والمعاني والأفكار، ومن تساقيهما تنشأ حضارات الإيمان وتقوم صروح الروح، وتتعالى المثل والقيم، ويصبح لكل شيء معنى ومغزى، وغاية وهدف، وتتلاشى العبثية، وتختفي "اللاأدرية"، وينزل "النبي" ﷺ إلى حومة إشكالات العالم ويسهم في حلّها ولا يبقى يتفرج عليها من بعيد كما لو كانت لا تعنيه وهي من صميم عمله وشريعته ورسالته.

مُنَادٍ من بعيد ينادي:

يا أصحاب القلوب الطاهرة المتطهرة، الضارعة المتضرعة، الحَوَّامة الهوَّامة، الصوَّامة القوَّامة، السابحة في الملك والملكوت، الشاخصة بعيونها إلى خالق الوجود، والرب المعبود، عالم الغيب والشهود.

أنتِ أيتها القلوب مادة حياة الإنسان، وجوهرة خُلُقِه وخليقته، والحياة السارية في موات الأرض، والروح المحرك لسواكن الأفئدة، ونفخة القيام من أجداث الغفلة والجهل، البانية لصروح المعرفة والعرفان، الضاربة في أرض الإنسان، تُعَلِّمين وتثقفين، وتأتينه من باب عقله وقلبه، ونوافذ روحه.. ملعون ملعون مَنْ يرد بك سوءًا، أو يضمر لك شرًّا، ويهدم لك صرحًا ابتنيته من حبَّات مهجك وعجنتِ لبناتِه بدموعك، ووضعت فيه أمل أمة، ومستقبل دين، وأصول حضارة، وأرحام ولادات جديدة مبرأة من الأدران، نقية من الأقذار.. عارفة بربها، شاكرة لخالقها، تبني ولا تهدم، تجمع ولا تفرّق.. نقية القلب، عفيفة اللسان، كريمة الأخلاق، تحب ولا تبغض، تنفع ولا تَضُرّ.

لا تُراعوا.. اقتربوا من هذه القلوب بصمت وهدوء، ثم غوصوا في عمق أعماقها لتجدوا أقوات نفوسكم الجوعى، وسلسبيل أرواحكم العطشى.. فإذا فعلتم خرجتم سالمين من "اللاهدفية" المنغمرين بها، "واللاأدرية" التي أضنت عقولكم.. ووجدتم المبررات التي تدعم خليقتكم ووجودكم الإنساني فوق هذه الأرض.. وبات لُغْزُ الحياة المقمَّط بالآف القُمط والحجب ظاهرًا مكشوفًا.

خذوا بحجز أفكاركم المغامرة في لجج الشكوك، وأنقذوا غرقاها من بحر الظلمات، فإذا بقواكم الروحية المعطّلة الطاقات تبدأ الحراك، وتخرق الآفاق، مسبحة باسم "الواحد الخلاَّق". ■

(*) كاتب وأديب عراقي.

hiragate.com

د. حسن الأمراني*

أوراق الخريف

العـــمْر ينتهـــبُ الدروبـــا ... مـــا قـــد تصـــرَّم لـــن يؤوبا
والشَّـــمْسُ، شَمْسُـــك يا طويـــل ... العمْـــرِ، توشـــك أن تغيبـــا
وتقـــول أوراقُ الخريـــفِ ... يكـــاد فرعُـــك أن يـــذوبا
فـإلام تُعْـرضُ عـن حمـى ... رب يحبُّـــك أن تتـــوبا؟
أنسـيت كـم جـاد الإلـهُ ... عليـــك؟ كـــم سترَ العيوبا؟
أنسيت كم كشف الكروبَ ... وقـــد تجرَّعْـــت الكـــروبا؟
أنسـيت كـم لطفَ اللطيـفُ ... بعبْـــده لطفـــا عجيبـــا؟
كم خضت بحر الوزر جهلاً ... كـــم ركبْـــتَ بـــه الذنـــوبا
ولكـم شربت الإثمَ كأسًا ... خلتهـــا عســـلاً وطيبـــا
ولكـــم تســـربلت الخطـــايا ... ســـابغاتٍ مســـتطيبا
ســـوّاك ربـــك عـــاريا ... وكســـاك مـــن كـــرم قشيبا
وســـلكت ليـــل البيـــد ... كالضلّيـــلِ مرتجفـــا كئيبـــا
فحبـــاك ثـــوب هدايـــة ... وســـقاك مـــن عفْـــوٍ ذَنُـــوبا
فـــأُرَزْ إلى ظـــلٍّ، علـــى ... حـــرّ الهواجـــر، لـــن تخيبا
واهتـــف: أجـــرني يـــا إلـــهُ ... فـــإنَّ لي قلْبًـــا منيبـــا
ضمِّـــدْ جراحًـــا أحدثـــتْ ... في القلـــب جمرتُهـــا نـــدوبا
هـــي أمـــتي.. هـــي أمـــتي.. ... إنّي دعَوْتـــك فاســـتجيبا

(*) رئيس تحرير مجلة المشكاة / المغرب.

متين رئيس*

منهاج الفاتحين

عندما سئل القائد الفرنسي "نابليون بونابرت": "مَن هم العظام؟" أجاب وهو يشير إلى السلطان العثماني محمد الفاتح: "لا أستطيع أن أكون حتى تلميذًا له.. وإذا سألتموني عن السبب أقول: "أنا رجل سيّئ البَخْت، لأني خَسِرتُ الأراضي التي استوليت عليها بالسيف وأنا على قيد الحياة، أما هو، فإنه رجل ذكي حافظ على الأراضي التي دخلها، وعرف سبيل توريثها إلى أجيال أمته القادمة".

تُرى، ما الذي دفع "نابليون" الذي حارب العثمانيين مرارًا، إلى هذا الاعتراف المرّ الذي سطّره التاريخ بحبرٍ لا ينمحي؟ أو ما الذي دفعه إلى وضع السلطان محمد الفاتح في مقدمة العظام وليس الإسكندر الأكبر ملك الإغريق، أو جنكيز خان إمبراطور المغول؟ لا شك أن السبب هو بقاء ثمرة الفتوحات العثمانية إلى يومنا هذا وعدم انمحائها عن مسرح التاريخ.

الهدف من الفتوحات

لعل السبب الأهم في بقاء ثمرة الفتوحات العثمانية إلى اليوم، هو التسامح والرحمة والمعاملة الإنسانية التي أبدتها الدولة العثمانية تجاه الشعوب التي فتحت أراضيها.. إذ كانت الدولة العثمانية تسمح لأبناء هذه الشعوب ممارسة طقوسها الدينية، وترعى القيم الإنسانية في هذه الأراضي.. وكأنها نَقشت سياستها في الفتوحات، استلهامًا من مقولة العالم العثماني "الشيخ أدب عالي" التي يقول فيها: "أَحْيِ الإنسانَ تحيا الدولة".

ومما يجدر ذكره أن العثمانيين دولة احتذتْ -في فتوحاتها- تقليدًا عتيدًا ورثتْه عن أسلافها. فقد كانت

آخر مَن أحيا مفهوم الفتح الذي يهدف إلى "إعلاء كلمة الله" الذي بدأه سيد المرسلين محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم. هذا ولم تكن الغاية من الفتوحات لدى العثمانيين توسيع بقعة المملكة، بل نقْل القيم الإسلامية إلى كل الأرجاء، وغرس محاسنها في كل القلوب. لذا سعى سلاطينها ورجال دولتها، إلى كسب قلوب الشعوب في الأراضي المفتوحة ونيل محبتهم ورضاهم؛ فقاموا بإنجاز مشاريع محمودة، خدمةً لأبناء هذه البلاد وفتحًا لقلوبهم.

عندما سافر السلطان محمد الفاتح إلى "طرابزون"، جرى بينه وبين "سارة خاتون" (والدة "أوزون حسن" أمير أَقْ قُيونلو) حوار علّه يكشف لنا الغايةَ التي سعت الدولة العثمانية إلى تحقيقها بهذا السفر. حينما رأتْ "سارة خاتون" معاناة الجنود في جبال البحر الأسود الوعرة قالت متأسّفة: "يا بني، لماذا تعاني من أجل مدينة واحدة كل هذه المعاناة؟" فأجابها السلطان الفاتح قائلاً: "يا أماه، إن هذه المعاناة ليست من أجل الحصول على طرابزون، بل من أجل كسب مرضاة الله، لأنه حمّلنا الأمانة، فإذا رفضنا هذه المعاناة، فلا يليق بنا أن نكون مجاهدين في سبيله تعالى، ونُسأل يوم القيامة عمّ فعلناه في سبيل الحفاظ على هذه الأمانة".

مفهوم الحكم لدى العثمانيين

منذ بضعة عصور وتقوم الدول العظمى بإشعال الفتن في الأراضي التي تريد الاستيلاء عليها. بينما العثمانيون كانوا إذا دخلوا بلدًا اتخذوا سبيل إرضاء الجميع النائي والقريب، وانتهجو الأسلوب الذي سار عليه الرسول ﷺ في المدينة المنورة. فالرسول ﷺ بعد الهجرة، اهتم بالمشاكل الاجتماعية في المدينة المنورة وسعى إلى حلها؛ إذ كان يعيش في هذه الديار قبائل متنوعة ومن أعراق مختلفة، وبالتالي كانت هذه القبائل في حالة صراع وحرب فيما بينها. ولعل هذه الحالة تؤكد أن أبناء هذه المدينة كانوا في أمس الحاجة إلى التوحد والأخوة والتسامح فيما بينهم. لذا كانت جهود الرسول ﷺ -قبل كل شيء- تصبّ في هذا الاتجاه. ومع مرور الزمن، انتهت الحروب بين هذه القبائل وساد الأمن والسلام

إن سلاطين آل عثمان انتهجوا منهج رسول الله ﷺ في فتوحاتهم. فعندما رأى أمم البلقان المتناحرة، الحبَّ والتسامح الذي أبدته الدولة العثمانية لهم، رضوا بحكمها رضاء من القلب واحتضنوها بحب؛ لأنهم رأوا جهودهم في حل مشاكل القوم، واتباعهم أسلوب الملاطفة واللين بدل القسوة والإكراه.

في كل جنبات المدينة، وسرعان ما تحولت المدينة المنورة إلى مركز تجاري آمن، ونقطة ثقافية جاذبة، يفد الناس إليها من كل صوب.

والجدير بالذكر أن سلاطين آل عثمان انتهجوا منهج رسول الله ﷺ في فتوحاتهم. فعندما رأى أمم البلقان المتناحرة بسبب الحروب المذهبية العرقية، الحبَّ والتسامح الذي أبدته الدولة العثمانية لهم، رضوا بحكمها رضاء من القلب واحتضنوها بحب؛ لأنهم رأوا بأمّ أعينهم جهودهم في حل مشاكل القوم، واتباعهم -في ذلك- أسلوب الملاطفة واللين بدل القسوة والإكراه. وما لبث أن انتشر الأمن والسلام في البلدان التي دخلت في حوزة الدولة العثمانية، وارتفع مستوى المعيشة لدى شعوبها.

تواضع الجنود

زار الرحالة الفرنسي Bertrandon De La Broquiere بلاد الأناضول في عهد السلطان مراد الثاني، وإن ما قاله حول الجنود العثمانيين، دليل على تواضعهم الذي رآه منهم. قال: "لم أستطع التمييز بين القواد والأمراء والجنود في الجيش العثماني؛ إذ كانت أزياؤهم العسكرية في منتهى البساطة.. وقد حظيتُ أيضًا، برؤية السلطان وهو يصلي في المسجد؛ إذ لم أر له عرشًا ولا كرسيًّا، بل كان يصلي على سجادة فُرشتْ على الأرض، ولم أر له حارسًا ولا ضابطًا ولا أيّ أحد حوله".

المشاريع المعمارية

غالبًا ما كانت الدولة العثمانية تصرف غنائم الحرب على المؤسسات الخيرية الإغاثية. كما كان السلاطين أيضًا يصرفون حصصهم من هذه الغنائم على المساجد،

hiragate.com

والمدارس العلمية، والبيمارستانات، وتأسيس الأماكن الخيرية. وقد سار رجال الدولة الآخرون على نفس المنهج الذي سار عليه السلاطين، وبادروا إلى تأسيس منشآت خيرية يستفيد منها الأهالي والمواطنون.

هذا وقد وجّه العالم الجليل "أق شمس الدين" -الذي كان له الدور الروحي في فتح إسطنبول- نصائح معبّرة إلى الباشاوات وأسياد المدينة، عندما كانت الغنائم توزَّع على الجنود في منطقة "أُقْ ميداني" بإسطنبول، قال: "أيها الفاتحون! اعلموا أن خاتم النبيين محمدًا ﷺ بشّر بكُمْ فقال "ونعم الجيش ذلك الجيش". إنكم المبشَّرون بهم. ولكن أوصيكم ألاّ تُسرفوا أموال الغنائم إسرافًا، بل اصرفوها في طريق الخير والحسنات". فقام الجنود بتنفيذ هذه الوصية وسعوا جاهدين لإعمار آخرتهم بإعمار دنياهم. وما لبث أن تحولت إسطنبول إلى مدينة تزدان بالمساجد والقباب، واصطبغت بصبغة الإسلام النقية وقيمه العالية السامية.

ولم تقتصر هذه المبادرات الخيرية على إسطنبول فقط، بل انتشرت إلى كافة أرجاء الأراضي العثمانية؛ حيث تم إنجاز مشاريع كبيرة في الأراضي التي دخلت في حوزتهم، وقدموا خدمات محمودة لأهاليها، فزيّنوا تلك البلاد بالآثار التي ظلت قائمة إلى يومنا هذا.

ومن أبرز الدلائل على تواضع السلاطين العثمانيين، إقامتهم في "قصر توب قابي" البسيط حتى أواسط القرن التاسع عشر.. حيث لم يرغبوا في إنشاء القصور الضخمة والفِلل الفخمة في البلاد التي فتحوها، بل فضّلوا أن يقدموا خدمات لأبنائها وأهاليها، ليظهروا قيم الإسلام الراقية العالمية ورسالته الشاملة الإنسانية.

هذا وإن الأراضي التي تم فتحها، سرعان ما كانت تتطور وتزدهر؛ حيث تقام فيها المساجد والأسواق، والمدارس، وسبل المياه، والحمامات.. بيد أن كل هذه المنشآت كانت تجتمع تحت سقف بناء يسمى "الكلية"، وكانت هذه الكليات بمثابة المقر الروحي والمعنوي للشعب العثماني، لأن الروح الذي نقشه العثمانيون على هذه المباني كان يعكس وجهة نظرهم إلى الدنيا والحياة.

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد، أن الأمم التي لم تدخل تحت الحكم العثماني أيضًا، كانت تسعى إلى محاكاة الأساليب العثمانية التي تنفذها في تطوير البلاد المفتوحة. ونرى هذه الآثار تمتد على مساحة واسعة من الأناضول إلى البلقان، ومن القارة الأفريقية إلى اليمن، وإلى غيرها من البلدان التي اصطبغت بالهوية العثمانية وتحلّت بقيمها التي تجرّعتها من مبادئ الإسلام السمحة.

ومن خلال هذه الفتوحات، أعطت الحضارة التركية الإسلامية ثمارها في الأراضي المفتوحة -ولا سيما أراضي البلقان- بشكل سريع؛ فتحولت المراكز السكانية الصغيرة إلى مدن مهمة متطورة، لأن هذه المدن كانت تحاكي مدنًا مركزية كـ"بورصة"، و"أماسيا"، و"مانيسا" وغيرها من المدن التي تتمتع بالمكانة المرموقة لدى العثمانيين. ومن ثم بدأت المدن في البلقان تتحول إلى مدن عثمانية تتزين بعاداتها وتقاليدها الراسخة.. ثم إن السياسة التسامحية التي انتهجتها الدولة العثمانية في هذه البلاد، دفعت شعوبها إلى اعتناق الإسلام وإلى الدخول في فضاءاته الرحمانية. ففي القرن السادس عشر -مثلاً- وصل عدد المسلمين في "أسكوب" و"مناستر" إلى ٧٠٪، وفي "نغبولو" و"تيرنوا" إلى ٥٠٪، وفي "فيدين" و"صوفيا" و"فيليبا" إلى ٧٠٪.

وختامًا، يقول المؤرخ التركي "سَزائي قَرَه قُوج" خلال تعليقه على فتح إسطنبول: "كان فتحُ إسطنبول فتحَ حضارة في حقيقة الأمر". والحق يقال إن التسامح، وحسن المعاملة، والرغبة في إحياء الإنسان، وغيرها من الأسباب، جعلت كل الفتوحات العثمانية فتوحاتٍ حضارية قيمية. ولا شك أن الوسيلة العظمى التي ساعدت على تحقيق هذه الفتوحات، هي تكاتف أصحاب العلم وأصحاب الحروب في سبيل إعلاء كلمة الله ونشر قيم الإسلام الإنسانية في كل أرجاء العالم. ولا شك أن ذلك لعب دورًا كبيرًا في بقاء آثار الحضارة العثمانية الإسلامية -مقارنة بالحضارات الأخرى- إلى يومنا الحالي دون انمحاء. ■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: محمد مراد.

hiragate.com

د. محمد بن إبراهيم السعيدي*

للكذب والرياء صخب وضجيج، أما الحقيقة والصدق فهادئان صامتان.. لكن وميض البرق يبلغ غايته قبل هزيم الرعد.

الموازين

الأمم بين التقوى والتكذيب

وإنما الأمم الأخلاقُ ما بَقِيَت
فإن هموا ذهبت أخلاقُهم ذهبوا

هذا البيت لـ"أحمد شوقي" -رحمه الله- لا يمثِّل حكمة تسير بها الركبان ويتغنى بها الشيوخ والولدان وحسب، بل هو خلاصة لسنّة كونية من سُنن التعاقب الحضاري على سيادة هذه الأرض، أو كما يسميه الفلاسفة المعاصرون "تفسير التاريخ". فأحمد شوقي بهذا البيت يلخص التفسير الأخلاقي لبقاء الحضارات وانحسارها.

فهو يرى أن الأمة -بالمفهوم الأعم لها- تبقى ما بقيت أخلاقها، وتذهب حين تذهب هذه الأخلاق، وهو رأي صحيح في فهم التاريخ يصدقه القرآن الكريم في أكثر من آية من كتاب الله ﷻ، الذي يعبّر عن الالتزام بالأخلاق بتعبيرات أدق وأكثر نفعًا للإنسان ومنها مصطلح التقوى، ويعبّر عن الانحدار الأخلاقي بمصطلح أوسع وهو التكذيب، فيقول سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(الأعراف:٩٦)؛ فذهاب الأمم هو ما تعبّر عنه الآية بـ"الأخذ"، وتعبّر عنه الآية بعدها بالإصابة:

المحافظة على أخلاق الأمة هي محافظة على بقائها ونجاتها من عقوبة الأخذ، لكن وجود أمم قد أضاعت أخلاقها دون أن تصاب بعقوبة الأخذ هذه، قد يُحدِث فتنة لدى النفوس الضعيفة فتحتج بمثل هذه الأمم على التهوين من خطورة التهاون مع ما يطلَق عليه زورًا "الانفتاح الأخلاقي".

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ﴾(الأعراف:١٠٠).

وتعبّر آيات أخرى عن الأخلاق بالصلاح والإصلاح، وتعبّر عن ذهاب الأخلاق بالفساد والإفساد والظلم: ﴿فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ۞ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾(هود:١١٦-١١٧)؛ فذهاب القرون الخالية هو بسبب استمرائهم للفساد وعدم نهيهم عنه، وأنهم لم يبق لهم أثر بسبب ذلك الظلم الذي ساقهم إليه التمادي في اتباع سُبُل الإترف، وأن هلاك القرى لا يمكن أن يكون مع الإصلاح. وهنا نجد التعبير بـ"القُرى" بدلاً من التعبير بـ"الأمم" أو "القرون" مع أن سياق الحديث عنهما؛ لأن الأصل في مدلول الأمة أو القرن أوسع من مدلول القرية، مع أن القرية قد تكون أمة، لكن ما يقع في الذهن مباشرة من الدلالة المرتبطة بالأمة أوسع بكثير مما يقع في الذهن مرتبطًا بكلمة "قرية"، ولعل ذلك -والله أعلم- مراعاة لما يسميه الأصوليون مفهوم الأولى، فإذا كان الإصلاح يدفع الله به الإهلاك عن أهل القرى والإفساد يُوقِعُهم فيه، فمن باب أولى أن تسري السنّة نفسُها في الأمة الأعظم في مدلولها من حيث العدد والمكانة.

وآيات أُخَر تعبّر عن زوال الأخلاق بالفسوق، وتُرتّب عليه النتيجة نفسها وهي الإهلاك: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾(الإسراء:١٦).

وهذه الآية تنقلنا -بشكل مباشر- من الحديث عن السنّة الكونية، أو ما يسميه الفلاسفة المعاصرون "تفسير التاريخ"، إلى الحديث عن الأسباب المباشرة التي تكون عادةً وراء نقلة المجتمع حسب التعبير المعاصر، أو الأمة والقرية حسب التعبير القرآني، من مُعْتنِقة للأخلاق عاملةٍ بها إلى كافرةٍ بالأخلاق متخليةٍ عنها.

فهذه الآية تشير إلى أحد الأسباب في هذا الانتقال، وهو الإتراف المؤدي إلى الإلقاء جانبًا بالأخلاق ومقتضياتها، والمراد بـ"المُتْرفين": المُنَعَّمون، وذلك لأن فيض النعمة على العبد كثيرًا ما يحمله على التساهل في أمر الله تعالى ونهيه، ويصيبه بشيء من الكبر الحامل على قلة الخشية من الله وضعف الورع عن محرماته.. كما قال ﷻ: ﴿كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى ۞ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾(العلق:٦-٧). كما أن المُنَعَّمين هم -غالبًا- المتبوعون للناس في أخلاقهم وعوائدهم، فإذا فسدوا أو فسقوا؛ حملوا المجتمعات على ذلك دون أمر منهم، ولكن بالانقياد الطَّبْعي للناس إلى ما عليه كبراؤهم. وهذا المعنى -أي تعليق الإطلالة بالترف- ليس عابرًا في القرآن، بل مؤكد في عدة مواضع منها الآية المتقدمة في سورة هود: ﴿وَاتُّبِعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ۞ لاَ تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾(الأنبياء:١٢-١٣)، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾(المؤمنون:٣٣). فالقرآن يؤكد -غير مرة- أن الترف سبب أغلبي لانحراف المجتمعات الأخلاقي.

ولذلك تأتي آيات كثيرة في القرآن الكريم تعالج ما يمكن أن نسميه "السلوكَ الاقتصادي للعبد المسلم". فالله تعالى لا ينهى عن طلب المال، كما لا ينهى عن الغنى ولو كان عظيمًا جدًّا.. فلا يوجد آية في كتاب الله تعالى ولا حديث نبوي ولا أثر يحدِّد سقفًا أعلى لما ينبغي أن يتوقف عنده الإنسان في حجم ما يملك من المال، بل يصفه الله سبحانه بأنه زينة الحياة الدنيا، كما أن الأبناء زينة لها أيضًا، لكنه يغرس في قلب العبد أنها وإن كانت

hiragate.com

hiragate.com

من الزينة المباحة إلا أن ذكر الله تعالى وسائر أعمال الخير خيرٌ منها. وكذلك يغرس مفهوم كون هذه الأموال كما أنها زينة فهي فتنة، أي مهيأة لصرف صاحبها -إن لم يحذرها- عن طريق الحق، فقال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾(الكهف:٤٦)، ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(التغابن:١٥).

هذا هو التهيؤ المعنوي لما ينبغي أن يكون عليه مفهوم المال في نفس العبد حتى لا يصل للترف المفضي إلى الاستهانة بالأخلاق ومن ثم هلاك الأمة. وأيضًا احتوى القرآن على تحديد آلية دقيقة للتعامل مع المال، فيجب أن يتولى العبد مسؤوليته العظيمة في الإنفاق على من سوى نفسه، وفي الوقت نفسه لا يتجاوز في إنفاقه حدًّا يوصله إلى فقدان ماله، أو الإساءة لسلوك المجمع في التعامل مع المال: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾(الإسراء:٢٦)، كما أوضحت هذه الآليةَ صورةٌ بديعة لا نظير لها في الرسم البلاغي: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾(الإسراء:٢٩).

إذن فالمحافظة على أخلاق الأمة هي محافظة على بقائها ونجاتها من عقوبة الأخذ، لكن وجود أمم قد أضاعت أخلاقها دون أن تصاب بعقوبة الأخذ هذه قد يُحدِث فتنة لدى النفوس الضعيفة فتحتج بمثل هذه الأمم على التهوين من خطورة التهاون مع ما يطلَق عليه زورًا الانفتاح الأخلاقي.. لكن الأمر قد حسمه القرآن الكريم حين قال تعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾(آل عمران:١٧٨). فالسنّة الكونية قد تتأخر لكنها لا تتخلف، لذلك حذَّر الله من الاغترار بتأخر السنة الكونية في الإهلاك بزوال الأخلاق فقال: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاَءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾(الأنبياء:٤٤). فسنة الله لا تتبدل: ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾(الأحزاب:٦٢). ■

(*) أستاذ في أصول الفقه، جامعة أم القرى / السعودية.

المتسلّون بالأحلام

منذ عصور، وهكذا إنسانُنا،
نائمًا يمشي،
قطارَ الزمن يمتطي،
لا يعرف متى ينـزل،
مخدور بهواء النوم،
مترَب بغبار الموت،
تتركه المحطَّات وتمضي،
لكنه مغتبط سعيد..
فويل لمن رام في الأحلام سُلوانا...

***

أ.د. أحمد عبادي*

علومنا الإسلامية والسياق الكوني المعاصر (٥)

سادسًا: في أهمية الوعي بالسياق

تَحْتَوِشُ الإنسان إفرادًا واجتماعًا، جملة من العناصر الذاتية، والموضوعية التي يتشكل منها سياقه الذي يحيا ويعيش فيه، والتعاطي مع هذا الإنسان في ذهول عن عناصر سياقه لا يمكن أن يكون مُستجمِعًا بحال لعناصر الفاعلية.

فإذا أخذنا مثالاً على ذلكم، التعاطي على مستوى الخطاب، فإن عدم استحضار عناصر السياق النفسانية يصيب هذا الخطاب بالنقص ويُعدمه القدرة على إصابة المحزّات، وتطبيق المفاصل، ووضع الهناء في مواطن النقب؛ لأن اعتبار السياق النفسي للإنسان المخاطَب هو الذي يحدد كيفية صياغة الخطاب لكي يكون موائمًا للمخاطَب مُتفهِّمًا من لدنه، ومُحدِثًا للتفاعل المؤدي إلى التبني المطلوب.

• وعدم اعتبار السياق العقلي للمخاطَب، يؤدي إلى تفاوت عن مستوى المخاطَب إما إفراطًا أو تفريطًا.

• وعدم اعتبار السياق الاجتماعي بمختلف أبعاده، يجعل هذا الخطاب غير معانق لانتظارات المخاطَب، وآلامه وآماله، ويمكن قولُ قريبٍ من ذلكم عن آثار عدم إدراك السياقات الاقتصادية، والسياسية، والمحلية، والكونية على هذا الخطاب.

وهناك مجموعة من المؤشرات التي تكشف اهتمام المسلمين بالسياق، أهمها العمل على استجلاء كيفية تنزيل النبي ﷺ لنصوص الوحي على الناس بالمدينة المنورة، وقراءة ابن العباس (عم رسول الله) للسياق النفسي للسائل حينما سأله: هل للقاتل من توبة؟ فسدّ

الباب أمامه عندما قرأ في ملامحه أنه عازم على القتل ويريد الرخصة. وفتح الباب لمن رأى أنه قتل فعلاً ويريد التوبة.

ولا يخفى أن الاهتمام بالسياق لدى علماء المسلمين حظي بأهمية كبرى، فالإمام مالك أنتج "سد الذرائع" و"فتح الذرائع"، وأكد على مراعاة المآلات ضمن الوعي بالسياق، واستحضار "فقه الأولويات"، و"الموازنة بين المصالح والمفاسد" في الفهم والتنزيل، كما أن الشافعي غيّر مذهبه كليًّا من الناحية التطبيقية بين العراق ومصر وإن حافظ عليه على مستوى التصور والتنظير.

ولقد أبدع علماء المسلمين في توظيف الآليات الاستنطاقية لفهم السياق الداخلي (النص القرآني المؤسس والسنة الموضحة له)، والسياق الخارجي (واقع الناس ومحاورة الكون بآليات علمية ومنهجية).

وقد نصوا عدة مفاتيح وآليات لفهم السياق من أجل تفادي الوقوع في الاضطراب و"الالتياث"[1]، ومنها:

• **الوعي بالسياق النفسي للمخاطب**: حيث يلقى الخطاب موائمًا لنفسية المخاطب (تجربة ابن العباس مع من يريد معرفة توبة القاتل)، وهذا الوعي يبقى ضروريًّا خاصة لمعرفة احتياجات الطفولة وتنوع البنيات الأسرية والعلاقات والمعارف، التي تحكم بنية كل مجتمع.

• **الوعي بالسياق العقلاني والمعرفي**: وذلك باستحضار القدرة الإدراكية للمخاطب حتى لا يحصل "الاستوحاش".

• **الوعي بالسياق المادي الاجتماعي**: وذلك بمعرفة العلاقات بين أفراد المجتمع، فعين المجتمع ليست مثل عين الفرد، كما أن الهموم والآمال تبقى متفاوتة بين المخاطبين. ومما يسهم في ذلك ضرورة الوعي بكيفية غرس النبي ﷺ للوحي في نفوس الناس، مما يساعد على تنزيله في واقعنا بمقدار يراعي السياق، إذ هناك مستويان في فهم السياق:

١- السياق الذي أعمل فيه النبي ﷺ النصوص.

٢- معرفة السياق الذاتي النفسي والاجتماعي وآليات المقاربة.

والذي يستطيع أن يحاور القرآن المجيد في موضوع مخصوص، لا بد أن تكون تضاريس عقله قد

إن التجديد في علومنا الإسلامية كان دومًا حاضرًا -وبطريقة عضوية- عبر مسار أمتنا تطلبًا واجتهادًا، كما أن هذا التجديد -لا شك- أمر مصيري لها، وجوديًّا، فيما يستقبل من تاريخها.

نحتت ونقشت، لتكون قادرة على إجراء الحوار في ذلك الموضوع. فمثلاً، لا يمكن أن نتصور أن الذي سوف يستخرج بعض معالم المنهج التربوي في القرآن المجيد، سوف يكون من خارج علماء التربية؛ لأنه لن يلتقط الإشارات التربوية العميقة والدقيقة الموجودة في القرآن المجيد، إلا مَن قد نقشت تضاريس عقله بحسب مقتضيات هذا الفن، وأصبحت عنده الردود الأفعال التي تجعله ينتبه إلى هذه الإشارات الموجودة بخصوص التربية في القرآن المجيد.

سابعًا: تجديد العلوم الإسلامية في سياقنا المعاصر

إن تجديد العلوم الإسلامية، ليكون ذا فاعلية ونفع في سياقنا المعاصر، فلا بد له من جملة شروط:

١- الاستيعابية: ونقصد بها الاستيعابية في مجال تمثل العلوم موضوع التجديد، من حيث المعرفة بها نشأة، ومضمونًا، ومباحث، وسيرورة، ومقاصد، وثمرات ومشاكل، وبدون هذه الاستيعابية، فيعسُر تصوُّر تجديد مثمر.

٢- التساؤلية: وهو شرط يُسلِمُ إليه سابقه، إذ لا يمكن دون استيعابية أن يفضي إلى مرحلة التساؤلية الفاحصة داخل هذه العلوم؛ والمؤدية إلى الوقوف على مدى انبنائها على النص المؤسس وانطلاقها منه، وكذا الوقوف على مدى وظيفيتها، وواقعيتها، وعلى أنجع مناهج وأساليب التقويم والتجديد فيها.

٣- المعرفية: ونقصد بها الغوص في بُنى هذه العلوم، وأنساقها، ومناهجها، للتأكد من اندراجها في النسق المعرفي الذي جاء به الوحي.

٤- الوظيفية: بحيث يتم الحرص على التأكد من مدى خدمة العلوم الإسلامية للإنسان فردًا واجتماعًا، وإعانته على تحصيل السعادتين، في انضباط لضوابط التيسير

hiragate.com

ووضع الإصر والأغلال، وإحلال الطيبات، وتحريم الخبائث، التي بيّنها الوحي الخاتم (النص المؤسِّس).

٥- الجماعية: ونقصد بها وجوب ارتكاز التجديد في مجال العلوم اليوم على العمل العلمي البحثي التجديدي، الجماعي، التكاملي، وذلك لِتَفَرُّع الإشكالات ومجالات الإصلاح داخل هذه العلوم والمعارف، وهو شرط لن يكون تنزيله الاجتهادي ناجعًا، إلا إذا توافرت الشروط الأربعة السالفة، مع إضافة أربعة شروط ضرورية أخرى، وهي:

٦- الانغمارية: ونقصد بها الانغمار الواعي والذكي في هموم ومشاكل الإنسان محليًّا وكونيًّا لمعرفتها أولاً، ثم الاجتهاد ثانيًا لوجدان حلول وظيفية وعملية لها، انطلاقًا من النسقين المعرفي والقيمي الإسلاميين، مما سوف يعطي للأداء الجماعي روحه ومقاصده ونفعيته.

٧- الاستشرافية: بحيث لا يتم الاشتغال بالمهم وتأخير الأهم، وبالمفضول وإهمال الأفضل، كل ذلك في تحديد دقيق للأولويات وهندسة لها.

٨- الحكامة والتدبير الجيدان: على المستويات الأكاديمي، والبشري، واللوجيستيكي، والزمني.. مما قد يجر إهماله إلى اضطراب في إنجاز شرط الجماعية. ولا شك أن من مقتضيات ذلك، الشرط الأخير، والذي هو:

٩- التكوين الأساسي والمستمر: بحيث يتم بناء مناهج تكوين المكوِّنين والمكوَّنين في ضوء الوعي بكل ما سلف، ليتم بعد ذلك، وتأسيسًا عليه تنسيق جهود فرق البحث المنتقاة فكريًّا ونفسيًّا ووجدانيًّا واستراتيجيًّا، ومواكبتها بالتكوين المستمر حتى يكون الأداء بحول الله مثمرًا.

إن التجديد في علومنا الإسلامية كان -وكما رأينا- دومًا حاضرًا وبطريقة عضوية عبر مسار أمتنا، تطلبًا واجتهادًا، كما أن هذا التجديد -لا شك- أمر مصيري لها، وجوديًّا، فيما يستقبل من تاريخها. ■

(*) الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء / المغرب.

الهوامش

(١) مستعيرًا اللفظ من عنوان كتاب "غياث الأمم في التياث الظلم" لإمام الحرمين الجويني رحمة الله عليه، المتوفى سنة ٤٧٨هـ.

عبرة الماضي

يا صروحًا بالأمس كانت عامرة،
أين اليومَ سكّانُك؟!
أين المتجبّرون على إنسانك؟!
أين العظمة المبهرة، والاحتفالات الصَّاخبة؟!
أحُلما عابرا كان أم سرابا زائلا؟!
ليت إلى هذا الحلم المتحجر انتبهنا،
وإلى عباراته الصامتة أصغينا،
ففهمنا بيانَه، واعتبرنا...

***

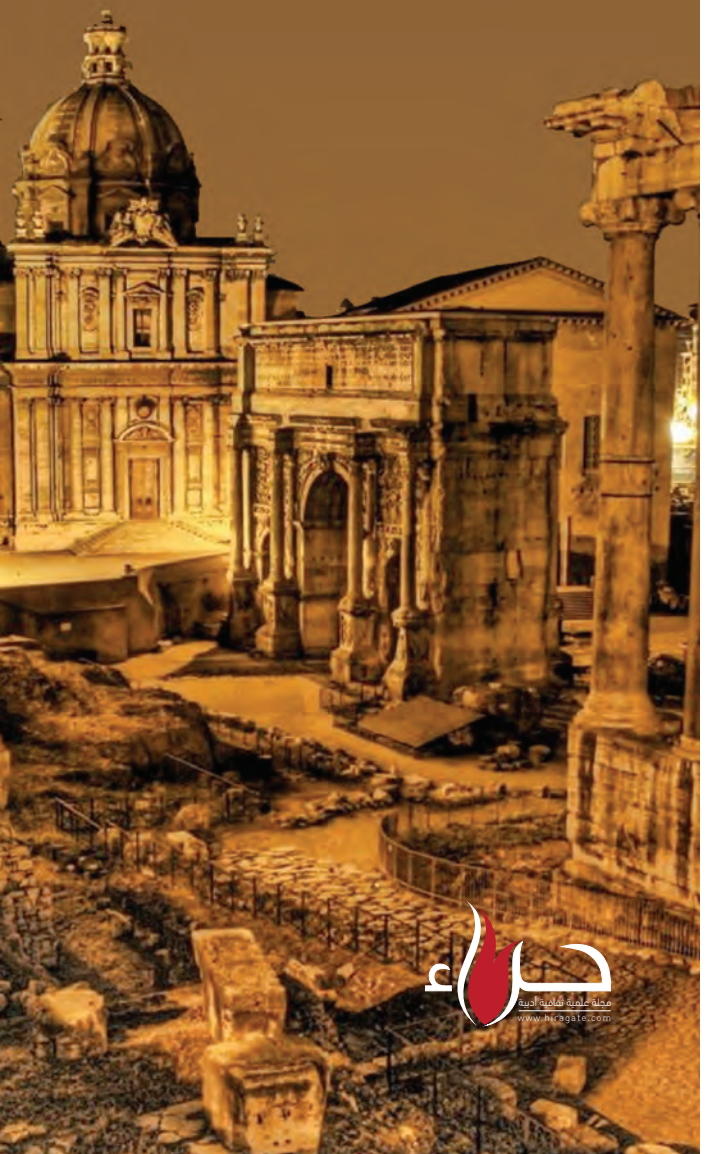

د. محمد السقا عيد*

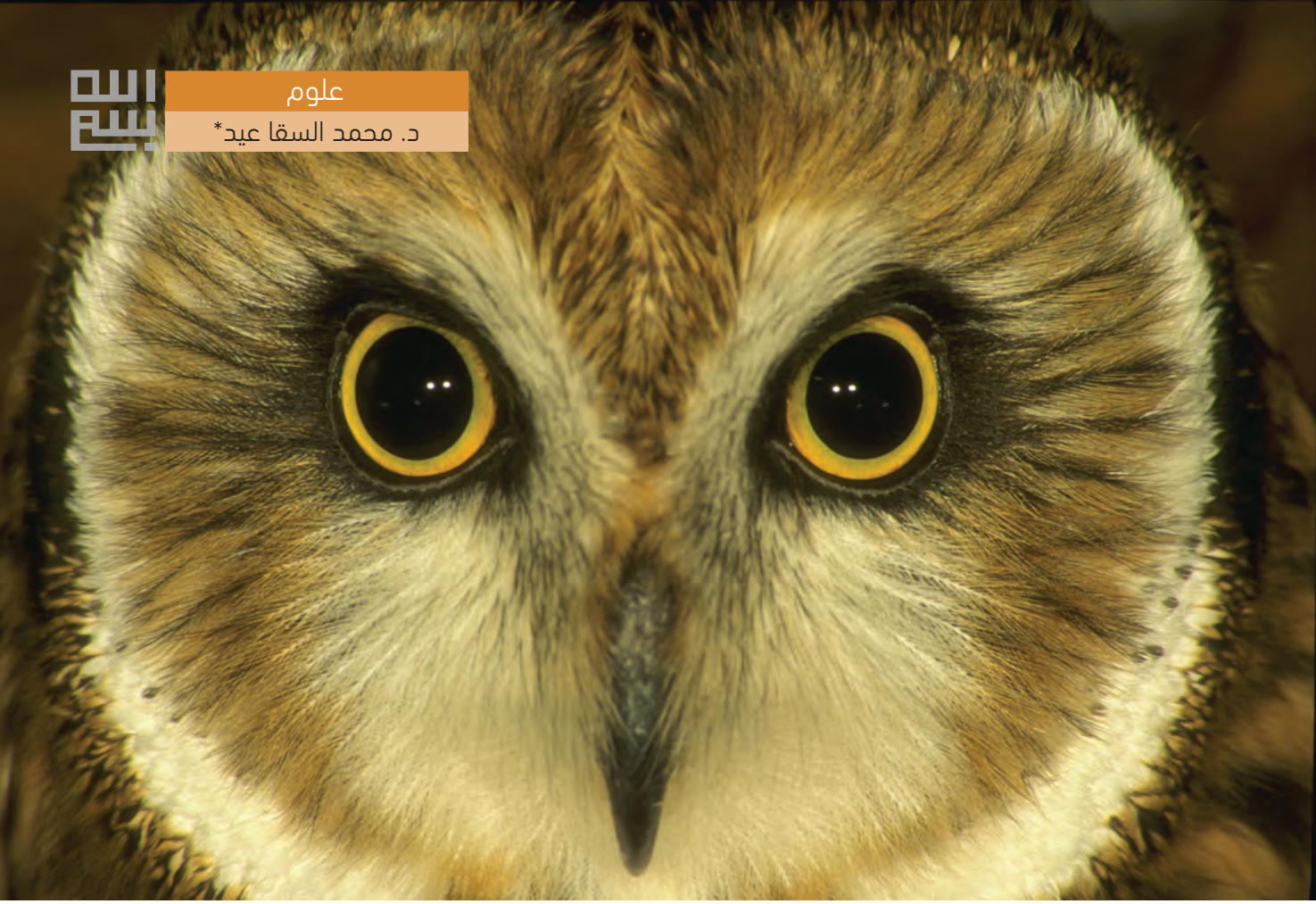

الطيور

هل ترى الأشياء كما نراها؟

تمتلك الطيور المحلِّقة في السماء، وكذلك الأسماك السابحة في الماء، عيونًا ذات خصائص عجيبة.. وبواسطة هذه الخصائص تستطيع الطيور أن تبصر وهي في الجو، أو تستطيع الأسماك أن تبصر وهي في عرض الماء.

هل خطر على بالك -عزيزي القارئ- يومًا أن تعرف كيف يبدو العالم في عيون الكائنات الحية الأخرى، من حشرات وطيور وحيوانات؟ وهل تراه مثلما نراه نحن؟ فكيف تراك هرّتك؟ وما صورتك في عيون أفعى تسعى للانقضاض عليك لا قدر الله؟ هل يشاهدوننا بالألوان؟ هل نبدو كعمالقة في عيون الحشرات؟ وإذا كان كذلك فكيف تتجرأ على مهاجمتنا؟ هل نظهر لهم بالمقلوب أم بصورتنا الحقيقية؟ أسئلة كثيرة تدور في رؤوسنا تحتاج إلى إجابة.

والآن تعالوا معي لنلقي معًا نظرة على عيون مجموعة من أغرب أنماط الرؤية عند بعض الكائنات، ونرى ما تنطوي عليه من أسرار مدهشة. وسنبدأ جولتنا هذه، بإلقاء نظرة سريعة على عيون الطيور.

يمتلك الإنسان ٢٠٠,٠٠٠ مستقبل (عصب بصري) في المليمتر المربع في المنطقة الواقعة فيها الخلايا البصرية. هذا الأمر يعطينا القدرة على رؤية صورة مفضلة، ولكنها ليست بمستوى ما هو عليه الأمر عند الطيور؛ حيث يمتلك العصفور الدوري حوالي ٤٠٠,٠٠٠ عصب بصري في المليمتر المربع، في حين يملك النسر حوالي نصف مليون عصبًا، مما يدل على الأهمية الحيوية للنظر عند الطيور.

فالطيور هي أكثر الفقريات اعتمادًا على حاسة البصر، لذلك فهي تمتلك عيونًا قادرة على التمييز

بين المسافات بشكل جيد حتى لا تصطدم بالأشجار. ويتضح ذلك جليًّا في مركز البصر الذي يشكل نصف الدماغ عند الطيور. كما أن لكل طير بصمته وهي عينه، وعندما تنظر إليها لايمكن أن يكون مثلها في طير آخر أبدًا، لأنها مثل بصمة اليد التي لا يمكن أن تتشابه أبدًا.

رؤية الطيور

تمتلك الطيور حاسة بصر أكثر حدة من تلك التي لدى الإنسان؛ فالإنسان يرى الأشياء بزوايا ومربعات مرئية معينة، إلا أن الطيور تستطيع أن ترى بنظرة واحدة ما يراه الإنسان مع تمييز كامل للأشياء، دون أن تكون في حاجة إلى زوايا ومربعات مرئية، وهذه الميزة مهمة جدًّا في عملية الصيد.

كما تستطيع بعض أنواع الطيور أن تميز الأشياء من مسافة أبعد بستة أضعاف من تلك التي تميزها العين البشرية.

نحن نستخدم النظارة الطبية لنقي بها عيوننا وهج الشمس، ولكن عيون الطيور مزودة بنظارات طبيعية تغطي بها عدسات عيونها، ثم تحدق في وهج الشمس فترى كل ما أمامها دون أن تتأثر. هذا الغطاء الشفاف يقي عيونها أيضًا من الغبار والتراب، فيوفر عليها عناء الذهاب إلى طبيب العيون للعلاج من أمراض اللحمية والحبوب وغيرها.

كذلك عندما يرمش الإنسان بعينه ولو للحظة، فإن هناك انقطاعًا في تشكل الصورة، ولكن هذا الانقطاع ليس مهمًّا بالنسبة للإنسان، لكنه مهم بالنسبة لطير يحلّق على ارتفاع مئات الأمتار وبسرعة كبيرة، بل يُعد ذلك مشكلة كبيرة يجب التخلص منها.

فالطيور عندما ترمش لا يكون هناك أي انقطاع في الصورة، لأن عيون الطير تحتوي على جفن ثالث شفاف يُدعى "الجفن الرامش" يتحرك حركة جانبية. وهكذا تستطيع أن ترمش بعيونها دون أن تغلقها غلقًا كاملاً.

أما الطيور الغطاسة، فإن جفنها الرامش يقوم بوظيفة نظارات الغواصين، لأنه الواقي من أية أخطار محتملة عند الغوص في الماء.

كما حبا الله تعالى الطيور بجفن ثانٍ داخلي، له

تركيب ومميزات عجيبة. فهذا الجفن الثاني شفاف لإمكانية الرؤية من خلاله، ولزج ويحيط بسطح العين بأكمله (وسبب اللزوجة هو عدم الجفاف والتيبس مع احتكاك الهواء به)، كما أن به شعيرات دموية في غاية الدقة، وهو يشبه العدسة.

والطيور هي الحيوانات الوحيدة التي تتفوق على الإنسان برؤية الألوان، إذ إنها تمتلك رؤية الطيف فوق البنفسجي غير المرئي على الإطلاق بالنسبة لنا.

كذلك يظهر تفوق عين الطيور عن عين الإنسان، إذ إن عين الطير تستطيع التقاط ١٠٠ صورة في الثانية الواحدة، أما عين الإنسان فتستطيع التقاط ٦٠ صورة فقط في الضوء القوي، وليس أكثر من ١٠ في الضوء الضعيف.

الكثير من الطيور يمكنها أن ترى بشكل جيد في الجو وتحت الماء على السواء. فالطائر المنتمي إلى مجموعة "Phalacrocorax Carbo Carbo" مثلاً، يملك عضلة إضافية حول عدسة العين تساعده على ملاءمة شكل

hiragate.com

العدسة بسرعة حسب الضرورة. هذا الأمر يعطيه القدرة على زيادة حدة تركيز تصل إلى ٥٠ ديوبتر، وهي أعلى حدة تركيز في عالم الحيوان.

وسوف نستعرض في السطور القادمة بعض الأسرار الربانية في عيون بعض الطيور.

إن عيون الصقر هي أقوى الأعضاء للإبصار في جميع المخلوقات.

يقول العلماء: يستطيع الصقر أن يلمح فريسته من بُعدٍ يزيد على كيلومترين ونصف، وترجع قوة الإبصار في الصقر إلى ضخامة مقلتيه، كما أن سمك شبكية عينيه (وهي الأنسجة التي تسقط عليها صور المرئيات خلف العين)، يبلغ ضعف سمك شبكية عين الإنسان على الأقل.

وعلاوة على هذا، نرى أن شبكية عين الصقر تحتوي على ملايين من خلايا الإبصار متناهية الدقة والصغر، كما أنها مبطنة بنقط صغيرة من الزيت لونها أصفر، تستطيع عين الصقر من خلالها أن تقي نفسها وهج الضوء ولمعانه عند تحليقه عاليًا في السماء. وهذه النقط تؤدي الوظيفة نفسها التي يؤديها مرشح (فلتر) آلة التصوير مع فارق التشبيه.

وعلى هذا، فإن الإنسان يعد قصير النظر إذا ما قورن بمثل هذه الحيوانات.. وهذه -بحد ذاتها- تعد نعمة من الله تعالى، لأن الإنسان يستطيع بذلك قراءة وتمييز الحروف التي يستخدمها في الكتابة وتبادل المعلومات، فلسنا في حاجة إلى هذه القدرة المعجزة على الإبصار. فالله سبحانه وتعالى خلق لنا عينين مناسبتين تمامًا للأنشطة التي خلقنا لها، ووهب كل نوع من الكائنات على هذه الأرض الأعين المثلى للرؤية في الوسط الذي يعيش فيه.

عيون البوم

يرى البوم الأشياء على مقدار من الضوء يقل مائة مرة عما يحتاج إليه الإنسان للرؤية.. فعيناه المتجهتان للأمام خُلقتا للتحديق إلى ظلمة دامسة. وعلى غرار البشر يتمتع البوم بنظر مزدوج. كما يرى البوم أمواج الأشعة الحرارية تحت الحمراء، وهذا هو سر رصد البوم للفأر

-مثلاً- في الظلام الدامس؛ لأنه -في الحقيقة- يرصد الأشعة التحت حمراء التي تصدر من جسم الفأر الدافئ.

تقول الأساطير: إذا أردت أن تقتل بومة على شجرة، فما عليك إلا أن تدور حول الشجرة، لأن البومة في هذه الحالة ستظل تتابعك بعينها وهي تدير رأسها حتى تتم دورة كاملة فينقطع عنقها.. وهذا ليس صحيحًا، لأن حركة الارتداد لدى البوم سريعة خاطفة، ولذلك يبدو وكأن رأسها دار دورة كاملة.

رؤية الديك

تتميز عين الديك عن عين الإنسان في وجود القمع الرابع بالشبكية والذي يحتوي على صبغات خاصة لرؤية الأشعة فوق البنفسجية.. فقد اكتشف العلماء بأن عين الديك ترى الأشعة فوق البنفسجية وتتفوق في تركيبها على عين الإنسان، حيث تستطيع رؤية موجات الضوء من ٣٠٠-٧٠٠ نانوميتر، بينما الإنسان يرى من ٤٠٠-٧٠٠ نانوميتر (النانوميتر وحدة قياس الأطوال الموجية)، أي إن عين الإنسان لا تستطيع رؤية الأشعة من ٣٠٠-٤٠٠ نانوميتر وهي في مجال الأشعة فوق البنفسجية، بينما تستطيع الطيور -بما فيها الديك- رؤيتها بسهولة. ■

(*) استشاري في طب وجراحة العيون، وعضو الجمعية الرمدية المصرية.

hiragate.com

د. سعيد شبار*

مفهوم الوسطية (١)

في تقويم الفكر واستقامة السلوك

ننطلق في هذه التوطئة من التسليم بوظيفية المفاهيم وقدرتها التأثيرية الكبرى على التغيير، وإعادة بناء وتوجيه الأفكار والقناعات والأقوال والأفعال.. فذلك ما فعله الإسلام عندما جاء بمفاهيم جديدة تحمل قيمًا جديدة، أو عندما عدل كثيرًا من مضامين ودلالات المفاهيم التي كانت سائدة؛ فاستطاع أن يخرج إلى الوجود إنسانًا جديدًا ويبني حضارة جديدة، وأن يقدم نموذجًا متفردًا من اقتران العلم بالعمل، والعلوم بالقيم والإنسان، وأن يوجه ذلك إلى معالي الغايات وسامي الأهداف.. مما لم يكن خافيًا في عالمية الإسلام الأولى مشرقًا ومغربًا.

إن الأمر نفسه هو ما حاولَته وتحاوله قوى توسعية متعددة حينما بسطت نفوذها وهيمنتها -وما تزال تفعل- من خلال بسط شبكة مفاهيمها وإحلال نظم فكرها وقيمها في البلدان المستهدفة، حيث أحدثت حالات من الاستلاب والتبعية ما تزال قائمة إلى الآن. وليس مخطئًا بكل تأكيد من اعتبر أن الصراع الدائر بين الأمم والشعوب والثقافات والحضارات، هو في

عمقه صراع مفهومي قيمي يتجلى في ميادين الفكر والسياسة والاقتصاد والثقافة.. لذا تبقى عملية نحت الألفاظ ومعانيها أو المصطلحات ومفاهيمها، من أدق الصناعات وأخطرها في عمليات التوجيه والتأثير.

ولنا أن نتساءل الآن، لماذا لم يعد للمفاهيم الإسلامية ذات التأثير والتأطير والتوجيه والتغيير الذي كان لها سلفًا؟ بل إن أحوال الأمة انقلبت إلى نقيض مراد الشرع من أحكامه وقيمه ومفاهيمه. فإن لم يكن ذلك في أصل المفهوم ومصدره يقينًا، فإنه في منهج الاستمداد منه والتمثل له، حيث يقع ذلك خارج مقصد الشرع ومراده بدلالات تشكلت في التاريخ وأطرها الخلاف. وذلك ما يدعونا إلى مراجعات عاجلة لمفاهيم كثيرة في ثقافتنا الإسلامية بنيت على غير هدى من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وإن حملت آيات وأحاديث شواهد لها. ويكفي في بطلان ذلك ثمرة الفهم ونتيجته على مستوى الفكر والسلوك فيما نشهده من فرقة وتجزئة، وغلو وتشدد، وتحاسد وتباغض، وانتهاك لحرمة الدماء والأموال والأعراض.. إلخ.

فلا يمكن أن يكون الدين الذي يصون الأنفس ويحرم الدماء ويشدد العقوبة فيها، ويصون العقول والأموال والأعراض، ويعتبر ذلك من كلياته ومقاصده السامية التي ليست فروع وجزئيات الأحكام إلا خادمة لها، هو نفسه مدخلاً وتبريرًا لانتهاك ذلك كله. إنه اختلال في الفكر والتوازن تقوده -قطعًا ويقينًا- أهواء وشهوات ومصالح ومطامح.. تستقطب إليها باسم الدين فئات من المغرر بهم عندما تضخم في أنفسهم "اعتقادات" ساذجة هي أقرب إلى الأوهام والأحلام منها إلى حقائق ويقينيات الدين. وسواء وصل هذا الاختلال في الفكر والسلوك درجة من الغلو والتشدد يستباح فيها ما تقدم، أو كان أقل من ذلك لا يستبيح دماء ولا أموالاً ولا أعراضًا.. لكنه يجعل من الخلاف المباح في الفروع والجزئيات خلافًا في الأصول والكليات، بحيث تنقلب عنده مراتب الأحكام فتصير الفروع أصولاً والأصول فروعًا، فيشتد في الدفاع والتمسك بالجزئي الأدنى ولو أدى إلى إهدار الكلي الأسمى، تصبح وفقًا لهذا

الوسطية تقتضي حضورًا في الناس بالعدل والقسط والهداية والرحمة، كي تكون الأمة شاهدة على الأمم بعد شهادة الرسول ﷺ عليها، تتمثل القدوة والأسوة النبوية لتكون قدوة وأسوة بين الأمم، تهدي إلى الحق والخير بعد أن هديت إليه وحملت أمانته.

"التصور" قضايا الوحدة، والأمن والسلم والاستقرار، والحريات والحقوق، والأخوة العامة، والتضامن والتكافل، والتعايش والإسهام في بناء العمران والإنسان.. إلخ. قضايا فرعية وكأن لا شيء يشهد لها من الدين ولا علاقة للمسلم بها ولا دور له فيها.

نعتقد أن ورش الأشغال الكبير المفتوح أمام علماء ومفكري الأمة، هو بناء الفكر الوسطي المعتدل من خلال التمكين لقيمه ومفاهيمه، وتمكين مسلمي الأمة من آلية وزن الأقوال والأفعال؛ حتى تستقيم أحوالهم على مقتضى الشرع العدل السمح.

إن مفهوم الوسطية أحد أهم هذه المفاهيم المحورية والمركزية في ثقافتنا الإسلامية، لم يحظ -للأسف- بما يكفي من الدرس والعناية والتمثل، كي يستعيد وظيفيته وإجرائيته الأصلية في ترشيد وتقويم حياة المسلمين. هذا فضلاً عن كثير من الفهوم والوسائط التي قصت من أطرافه وحدت من إمكاناته، حينما اختزلته في تعريفات وحدود ودلالات هي أقرب إلى تحديد مواقع جزئية منها إلى منهاج كلي. المنهاج الأصل الذي توزن به الوحدات والكيانات الصغرى، كما توزن به الوحدات والكيانات الكبرى في سائر المجالات والحقول، من قضايا الفرد الخاصة إلى قضايا الأمة العامة.

ذلك ما يحاول هذا المقال بيانه من خلال محاور عامة ذات علاقة بالمنظور والرؤية أكثر من التفاصيل، انطلاقًا من الأصول المرجعية وبعض التجليات الفكرية والعملية.

نحو نظام وأصول فكرية كلية مؤطرة لتداول المفاهيم

إن التأسيس لأصول فكرية جامعة منضبطة ومنفتحة هي كليات مفاهمية شرعية، أمر لم ينل حظه من البحث

hiragate.com

لا بد من تدشين نموذج بنائي جديد للمعرفة في الفكر والفقه، يستمد أساسًا من الوحي المعصوم، ويستجيب لخصائص الوحي في كليته وكونيته، وفي إنسانيته وقيم الهداية والإرشاد فيه، وينفتح من خلال ذلك على مختلف التجارب، الذاتية والغيرية والقديمة والحديثة.

والدرس والبناء والتأسيس مثل ما نالته علوم ومفاهيم أخرى. ونقول هذا -لاعتبار آخر- هو ضمور "الفقه الجماعي" في الأمة الذي يطرح مشكلاتها وقضاياها كأمة. والمداخل المعرفية لإثارة قضايا التكليف الجماعي للأمة، ليست بالضرورة "فقهية" فحسب بالمصطلح الفقهي العلمي الفني، بل أيضًا فكرية واجتماعية وتربوية وتاريخية.. أو بالمصطلح الفقهي العام الذي هو مطلق الفهم عن الله تعالى في مختلف آياته، في النص وفي الأنفس وفي الآفاق.

فـ"الأمة" كلفظ ومفهوم لم يرد في القرآن إلا في سياقات تكليفية عملية كما في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾(آل عمران:١١٠)، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣)، ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(آل عمران:١٠٤).

وفرق كبير بين الخطاب "الشعاراتي" الذي سقطت ضحيته كثير من التنظيمات الحركية، والذي يُروج لخيرية ووسطية الأمة بين الأمم، دون أن يعي أن ذلك تكليف شرعي حضاري متوقف على التحقق بأعمال وأقوال مسبقة ينبغي النظر أولاً في كيفيات إحلالها وتنزيلها على مستوى الفكر والسلوك في عموم أفراد الأمة، وبين خطاب "العلم" و"الفقه" و"التكوين" الذي ينظر في تلك الكيفيات قبل الشعارات. ويكفي في بيان ذلك أن "التنزيل" الذي هو "فقه" و"علم"، محوط بـ"فقهين" و"علمين" سابقين عليه، أحدهما في "النص" والآخر في "الواقع". والذي لا ينفع معه الخطاب والشعار، وإنما البحث والدرس والتكوين، المؤهل فكرًا وسلوكًا لتبوء تلك المقامات.

إن من أكبر مداخل الابتلاء والفتنة في الأمة، أن أعطت طوائف وحركات معينة الأولوية لـ"الشعار"، وحاولت تنزيله مع فراغ كلي في المضمون العلمي والفقهي، بل وحتى السلوكي الأخلاقي. فكل يفهم حسب هواه وطموحه، وفي أحسن تقدير حسب سقف وسياج الحركة أو الطائفة، ثم يُنزَّل بعد ذلك دون اعتبار لمنطلقات ولا مآلات. يقتبس من الشرع شواهد تشهد لما اختاره وبناه خارج الشرع، مدعيًا أنه "يخدم" الدين وهو في الواقع لا يخدم إلا طموحه، وفي أحسن الأحوال يخدم فهمًا قاصرًا في الدين.

فالخيرية في الآية السابقة عملٌ قبل أن تكون شعارًا، تقتضي إيمانًا وأمرًا ونهيًا حسب مقتضى ومنهج الشرع في الأمر والنهي والدعوة عمومًا، بالحكمة والموعظة الحسنة. والوسطية كذلك تقتضي حضورًا في الناس بالعدل والقسط والهداية والرحمة، كي تكون الأمة شاهدة على الأمم بعد شهادة الرسول ﷺ عليها، تتمثل القدوة والأسوة النبوية لتكون قدوة وأسوة بين الأمم، تهدي إلى الحق والخير بعد أن هديت إليه وحملت أمانته.

ولسنا هنا بصدد التقليل من شأن أي حركة أو طائفة، فكل الجهود الإيجابية البناءة مقدرة ومعتبرة، لكننا في هذا السياق نؤكد على أمر جامع وضابط كلي عام ينتظم كل الجهود، وهو ما أمر الله تعالى به في كتابه العزيز: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾(الإسراء:٣٦)، وما بوّب به البخاري -رحمه الله- في كتاب العلم من جامعه الصحيح "باب العلم قبل القول والعمل"، قال: "لقول الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ﴾(محمد:١٩).

فتأمل حال الأمة اليوم بين ما هي عليه وبين ما ينبغي أن تكون عليه، من منظور الاستخلاف، والتكليف، وحمل الأمانة، وإعمار الأرض، والشهادة على الناس.. كم مدة زمنية، ومساحة مكانية، وجهودًا علمية، تلزم لاستدراك ما فات؟ وكي لا أكون مثبطًا دافعًا إلى العجز والكسل والتشاؤم -وهو ما لا ينبغي أن يكون بأي

hiragate.com

حال من الأحوال لأنه نقيض المطلوب في أي عمل إصلاحي- أذكر بأن سنن التدافع الحضاري بين الأمم سقوطًا ونهوضًا، لا تقاس فقط بالمقاييس والمؤشرات الظاهرة التي ألمحنا إلى بعضها، أي "الزمن التاريخي" و"التراكم المادي"، وإنما بشيء أعمق وأنفذ وأسرع تأثيرًا هو "الزمن النفسي والثقافي" و"التراكم القيمي والمعرفي"؛ فمتى ما استحكمت هذه العناصر التي تنتمي إلى "عالم الأفكار" أو "أخلاق العمق"، كان التمكين السريع للنموذج الحضاري في "عالم الأشياء" أو "أخلاق السطح" كذلك.

إن من أسئلة النهوض الحضاري التي ما تزال معلقة وتحتاج إلى فقه جماعي كلي، وفكر مؤطر ومستوعب: كيف تتحقق الأمة بالخيرية وبالوسطية وبالشهادة وبحمل الأمانة وبالاستخلاف وبالتعمير؟ وكيف يمكن تحويل هذه الكلمات المفاهيمية إلى قناعة عامة في جمهور الأمة، بجعلها تكليفًا شرعيًا جماعيًا كالتكاليف الفردية على حد سواء؟ تخلق الإرادة والحافز الإيماني والعملي الجماعي كما الفردي على حد سواء؟ تدفع إلى تقويم الفكر واستقامة السلوك الجماعي كما الفردي على حد سواء؟

إن سؤال "الكيف" هنا، يحيل ضرورة على عمل منهجي. والعمل المنهجي -أيًا كان- لا ينفك ضرورة عن إطار مرجعي موجه يفرضه الموضوع. إن العمل المنهجي المنظم المستند إلى معالم ومحددات منضبطة، والمؤطر بأصول وكليات واضحة، تسعفانه من التحرر -ما أمكن- من أضرب النزعات والتحيزات المختلفة، هو عملة نادرة في ساحتنا الفكرية والثقافية.

نعم، نادرة هي الدراسات والبحوث المنهجية المعرفية التي تروم بناء المفهوم في كليته واستيعابه فكرًا، انطلاقًا من كلياته وأصوله النظرية. وفي وظيفيته وإجرائيته عملاً، تفعيلاً لبعده التنزيلي الواقعي. وهذا ما نحيل عليه دائمًا من ضرورة استناد أي بحث في ثقافتنا الإسلامية إلى مصادر المعرفة -نصًا وعقلاً وواقعًا- في تكاملها وانسجامها لا في تقابلها واختلافها. فلكل مصدر دور في تقويم الفكر واستقامة السلوك، وفي درء كثير

إن الأصل في رسالة عالمية، أن تكون قيمها إنسانية ذات قدرات استيعابية واستقطابية لا إبعادية وإقصائية، تبشيرية لا تنفيرية، وتيسيرية لا تعسيرية. وإن من سنن الله تعالى في خلقه التي فطر عليها مخلوقاته، الأداء والإنجاز الجماعي للكائنات كافة.

من الآفات التي يمكن أن تطرأ عليهما كما هو الواقع الفكري والسلوكي المتجلي في مظاهر الغلو والتشدد، والتحيز والتعصب.. السائدة في الأمة اليوم للأسف.

فالوحي يرشد ويسدد ويهدي للتي هي أقوم في الأقوال والأفعال والعلوم والمعارف، يفتح من خلال أصوله الكلية العامة آفاقًا للتعارف والتدافع السلمي. والعقل آلة الاجتهاد والتجديد والإبداع والتشييد، يدرأ تفعيله صور الجمود والتقليد. والواقع مجال الاستخلاف والتكليف والحركة والتعمير والسنن والوقائع، حيث يتكيف تنزيل الأقوال والأفعال وتُدرأ آفة الصورية والتجريد.

وما دام الاجتهاد بالعقل والحركة في الواقع جهدًا بشريًا نسبيًا، يبقى الوحي المعطى الإلهي المطلق مرجعًا مصدقًا ومهيمنًا. فهو -من جهة- يعلي من شأنهما أيما إعلاء إعمالاً للعقل واعتبارًا للواقع، وهو -من جهة أخرى- يدفع عنهما آفات التحيز والتمركز والنزوع إلى التضييق، التي يمكن أن تلحق بهما كذلك. ولقد مر الفكر الغربي بنزعات عقلانية وواقعية شديدة التحيز والتمركز إلى درجة "التأليه" باسم العقل والواقع أو العلم والطبيعة، لا تختلف في شيء عن صور التشدد والغلو التي تمت باسم الدين. فما تزال البشرية تعاني من آثار ومخلفات النموذجين في صور أكثر بشاعة من حيث هدر كينونة الإنسان والإجهاز على منظومة قيمه المرجعية والمعيارية. فلا بد -إذن- من تدشين بحث جديد في أصولٍ ما تزال محجوبة لاستثارة كوامنها، من شأنها الإجابة عن كثير من الإشكالات والتحديات القائمة بوجه الأمة في فكرنا وواقعنا الراهن.

إن أصل الوسطية هو من الأصول الكلية الجامعة،

hiragate.com

عليه مدار فلسفة التشريع والتكليف فهمًا وتصورًا وسلوكًا وعملاً، فهو معيار وميزان. ولنقل "محددًا منهاجيًّا"، تقاس به نسب الأفعال والأفكار، كي تبقى دائمًا على حال من الاستقامة والاعتدال، والتوازن والقصد والسواء. لكن -للأسف- نجد أن الاختزال والتبسيط التاريخي قد طال هذا المفهوم منذ وقت مبكر كما طال غيره من المفاهيم الكلية المتقدمة في القرآن الكريم وفي بيان السنة والسيرة العملية.

فلم يكن غريبًا إذن، أن يطل الانحراف والغلو برأسه منذ عهد الصحابة وأن ينمو ويترعرع بعد ذلك، بل وأن يحتضن ويتأسس في مذاهب وتيارات فكرية وفقهية وسياسية. كما نجد أن التناول المعاصر لهذا المفهوم لم يستثمر كل أبعاده الشرعية التربوية والنفسية والاجتماعية والفكرية، بل حافظ على التبسيط التاريخي ذاته. وأخطر منه، أن المفهوم ركبته تأويلات أخرى جعلته توفيقًا وتلفيقًا بين التيارات الفكرية والحضارية المتصارعة.. وخاصة طوائف من المفكرين العرب والمسلمين، ممن لا يريدون الالتحاق الكلي بالغرب ولا الانغلاق الكلي في التراث.

فلدفع تهمة الاستلاب، يشتغلون ببعض التراث، ولدفع تهمة الانغلاق، ينفتحون على علوم ومناهج الآخر.. ويعتبرون هذا من التوسط والاعتدال، بل هو -في اعتقادهم- جوهر "الوسطية" المطلوبة في الدين. نلحظ شيئًا من هذا في أعمال ما سمي بـ"رواد النهضة" الأوائل في منهج المقاربات التي قارنوا بها بين المقومات الحضارية للأمة ومقومات الحضارة الغربية: بين الشورى والديموقراطية، والبرلمان وأهل الحل والعقد، والحسبة والمجالس النيابية.. إلخ. وطبعت كذلك أعمال بعض الكتاب المعاصرين في الحقل الإسلامي، في منهج المقارنات الذي يبحث عن الفوارق بين الحضارتين ليثبت أسبقية الإسلام إلى كثير من النظم والقوانين والحقائق العلمية التي انتهت إليها الحضارة الغربية.

وليس الغرض هنا التنكر لهذه الجهود، فهي مفيدة ومساعدة من غير شك، لكن لا بد من استئناف النظر وتجاوز مواطن القصور والخلل.. لا بد من تدشين نموذج بنائي جديد للمعرفة في الفكر والفقه، يستمد أساسًا من الوحي المعصوم، ويستجيب لخصائص الوحي في كليته وكونيته وفي إنسانيته وقيم الهداية والإرشاد فيه. وينفتح من خلال ذلك كله على مختلف التجارب، الذاتية والغيرية والقديمة والحديثة.. فأصوله الكلية المستوعبة، تمكنه من الامتداد في الزمان والمكان وتأطير حركة الإنسان حيث كان.

إن أصل الوسطية في القرآن الكريم، له شبكة علائقية مع سائر المفاهيم الكلية الأخرى التي تروم تأسيس التوسط والاعتدال في كل كيان الإنسان، فكرًا وتصورًا وسلوكًا وعملاً؛ في نفسه سواء تعلق الأمر بأعماله العادية أو التعبدية، وفي المجتمع من حوله بكل تجلياته وتشكلاته الإثنية والملية، بل وفي رؤيته لمعنى الكون والإنسان والحياة، ووظيفته الرسالية القائمة على جوهر الهداية والرحمة للذات وللناس. إذ الأصل في رسالة عالمية، أن تكون قيمها إنسانية ذات قدرات استيعابية واستقطابية لا إبعادية وإقصائية.. وبالمصطلح الشرعي، تبشيرية لا تنفيرية، وتيسيرية لا تعسيرية.

وإن من سنن الله تعالى في خلقه التي فطر عليها مخلوقاته، الأداء والإنجاز الجماعي للكائنات، حية أو جامدة، عاقلة أو غير عاقلة.. يتضح ذلك من أبسط تأمل في آيات الأنفس والآفاق. وهذا الأداء والإنجاز الجماعي، هو ما يمكن تسميته بـ"العمل المنظومي" الذي تتداخل وتتكامل فيه الوظائف العامة والخاصة.

وهذا الأمر كما يحدث في البنى والأنساق المادية والاجتماعية، يحدث كذلك في البنى والأنساق الفكرية والثقافية، والعلمية والمعرفية.. وهو الذي نسعى إلى بيان جزء منه في مجال المفاهيم القرآنية عمومًا، ومفهوم الوسطية خصوصًا.

بناء على ما تقدم، فإن المفاهيم في القرآن عمومًا، تبقى منظومة تشتغل وفق منطق ونظام خاص هو من سنن الله الدينية الشرعية المعادلة أو المكافئة لسننه تعالى الكونية القدرية. بمعنى أكثر وضوحًا، إن آيات الله تعالى في كتابه المسطور، معادلة من حيث نظامها واتساقها

hiragate.com

لآيات الله في كتابه المنظور، كما قال الله تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۞ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۞ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۞ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ۞ لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾(الواقعة:٧٥-٧٩).

فنجد لكل مفهوم وقيمة في القرآن الكريم، حركة أو وظيفة ذاتية لا يقوم بها إلا هو، وحركة أو وظيفة تفاعلية يقوم بها مع غيره في سياق تكاملي للوظائف. والحركتان معًا -الذاتية والتفاعلية- تتمان في الوقت نفسه بشكل نسقي متواز. وهو عمل أشبه ما يكون بأعضاء جسد الإنسان، أو قطع غيار محرك ما. فكل عضو في الجسد يقوم بوظيفة خاصة لا يمكن أن يقوم بها غيره. وتأمل هنا عمل القلب أو الكبد أو الرئة أو غيرها.. ثم وهو يقوم بهذه الوظيفة، لا يستطيع أن يقوم بها مفردًا مستقلاً، فلا بد له من شبكة علاقات تفاعلية مع الأعضاء الأخرى إمدادًا واستمدادًا. وتأمل قطع محرك، أيًا كان حجمًا ومجالاً، فلا قطعة تنوب عن غيرها، ولا هي بقادرة على الاشتغال دون دعم وسند غيرها لها، بل تلَف قطعة واحدة ضمن عشرات أو مئات القطع يعطل عمل المحرك أو يضعفه إضعافًا، بحسب دورها المحوري الأساسي أو الثانوي التكميلي.

إن اشتغال المفاهيم عمومًا في القرآن الكريم، هو أدق وأشمل من الصور التقريبية التي أشرنا إليها، حتى قيل إنه كلمة، وبنية، ونسق، ونظام.. إلخ. فأصل التوحيد أو الإيمان -مثلاً- أصل مهيمن. ولنقل بتعبير بعض الكتّاب "قيمة عليا حاكمة". المفروض أن يكون له حضور في سائر المفاهيم الأخرى يزودها بالمعنى، ويحدد وجهتها وقبلتها، ويسدد كثيرًا من آليات اشتغالها.. لكن للأسف ضمر هذا الأصل وانحصرت معانيه ودلالاته في التداول التاريخي، حتى لم يبق لها حضور في مجالات العلم والمعرفة والمجتمع، فلحقها من الآفات ما لحقها. ومثل ما أصاب مفهوم التوحيد من اختلالات، أصاب مفاهيم أخرى كثيرة لها دور محوري ومركزي في بناء الثقافة والمعرفة الإسلامية؛ مفاهيم من مثل الاستخلاف، والتكريم، والتسخير، والوسطية، والشهادة، والعدل، والتزكية، والحرية، والإخلاص،

لا يمكن أن يكون الدين الذي يصون الأنفس ويحرم الدماء ويشدد العقوبة فيها، ويصون العقول والأموال والأعراض، ويعتبر ذلك من كلياته ومقاصده السامية التي ليست فروع وجزئيات الأحكام إلا خادمة لها، هو نفسه مدخلاً وتبريرًا لانتهاك ذلك كله.

والإحسان، والإنسان، والعمران.. وغيرها، منظور إليها وفق المنهج ومنطق الاشتغال الذي ألمحنا إليه، أي من حيث استقلالها بمعنى، وتكاملها من خلاله مع سائر المعاني الأخرى. هذا فضلاً عن دلالاتها المعرفية البنائية التأسيسية، والتفسيرية التعريفية الكلية لقضايا الوجود والإنسان والغيب والشهادة.

ولهذا كان النظر الجزئي المفرد لبعض المفاهيم بمعزل عن شبكة علاقاتها وسياقاتها، من أخطر الآفات التي أصابت كثيرًا من الدراسات وهي تحاول عرض أو بيان "المنظور الإسلامي" لقضية ما، كقضية الأسرة أو المرأة أو الحرية أو المساواة.. وكثيرًا من القضايا الفكرية والاجتماعية والسياسية.. حيث يتم التعريف من خلال معنى أو اثنين، دون النظر إلى مجموع المعاني والدلالات، أو من خلال اصطلاح مدرسي معين دون سائر الاصطلاحات، مما يحد ويضعف قدرة المفهوم الأصلية الكلية الاستيعابية، باعتباره مطلقًا من مطلق وظيفته الأساس: التأطير الممتد عبر الزمان والمكان لفكر وحركة الإنسان.

وهذا المنهج هو الذي عابه القرآن الكريم نفسه على ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾(الحجر:٩١)، أي أجزاء وقطعًا، أو أعضاء وفرقًا. وإن كان السياق واردًا في الذين يؤمنون ببعضه ويكفرون ببعضه، فإنه -منهجيًا- عام على كل عمل انتقائي يخل بشرط الوحدة البنائية والنسقية التكاملية بين سائر مكوناته. ■

(*) جامعة السلطان مولاي سليمان، بني ملال / المغرب.

hiragate.com

أ.د. بركات محمد مراد*

الفن والجمال

بين الرؤية الإسلامية والكلاسيكية الغربية

لم يقع الفنان المسلم في غواية الجسد البشري، ولم يستأثر ذلك التناسق البديع المتجلي في أعضاء ذلك الجسد على اهتمام الفنان المسلم كما عند فنان الغرب. ولذلك تنزه الفنان المسلم عن تجسيد الطبيعة، أو عن محاكاة الجسد البشري، وجاءت فنونه أقرب إلى التجريد منها إلى التجسيد أو التشبيه.

هذا فضلاً عن أن الفنان المسلم كان دائمًا بعيدًا عن النرجسية البغيضة، حيث لم تستأثر ذاته باهتمامه؛ فكثيرًا ينسى نفسه أو يتعامل مع فنه بروح عميقة، حيث الرؤية الحدسية تستغرقه فيأتي فنه وكأنه يقوم بعمل عبادي، وينسى حتى التوقيع على لوحاته. فكثير من الأعمال الفنية الإسلامية لا تعرف مَن صنعها، ولا مَن قام بإبداعها. إضافة إلى أن كثيرًا من هذه الأعمال كانت تتم بشكل جماعي، حيث ينخرط جمع من الصناع والفنانين المسلمين في إبداع لا يظهر فيه عمل الفرد منفردًا، وينسب هذا العمل إلى شخص المُلك أو الخليفة الذي أمر بصنعه وإنشائه.

أين هذا من الفن الغربي الحديث الذي ورث أطروحة أربعة قرون من عصر النهضة الإيطالية، والتي تجعل من الإنسان وجودًا مطلقًا مركزًا لمسار دائرة الوجود الكوني العام. وقد تظاهرت امتدادات هذه الفلسفة في استغراق بعض الاتجاهات الفنية في هوس الـ"أنا-المركز" و"اللوحة-

الذات"، وتحول الأثر الفني إلى مرصد للسيرة الشخصية، وشاعت اللوحات الأنَوية التي تمثل وجه الفنان بريشته، والصيغ التعبيرية التي تحمل الحد الأقصى من البطولة الأنَوية المتفردة المتميزة المتفوقة.

إن المصور المسلم لم يكن يراعي في ترتيب وحداته قواعد المنظور، على الرغم من أنه لم يكن جاهلاً بهذه القواعد، فقد راعاها أحيانًا في رسم قطع الأساس، أو رسم العروش والمناضد.. ولكنه كثيرًا ما تجاهلها، ولم يراعها مثل زميله الغربي، وكأننا به يريد أن يصور لنا كل وحدة على حقيقتها المجردة عن تلك الظروف الطارئة، من ضوء وظل، أو اختفاء وظهور، أو تقديم وتأخير.. لأن كل ذلك، أحوال عارضة تزول بزوال سببها، وتتغير بتغير الناظر ومكانه إلى الشيء، كما تتغير هذه الأحوال بتغير الزمان.. وإن ما يهم الفنان المسلم، ما تراه "البصيرة" لا "البصر"، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

الموقف من الأشياء والطبيعة

إن الموقف من الأشياء والطبيعة، تحدده في الغرب الآلة وقواعد علم الضوء الثابتة، بينما يحدده في الصين الطبيعة التي تجعل الإنسان جزءًا منها.. وهو كذلك في الهند مع بعض المداخلة العلمية التي فرضها تأثير الغرب.

أما في الفن الإسلامي، فإن الموقف من المرئيات يحدده مفهوم الله الذي له ملكوت السموات والأرض، وهو المنطلق والمثل الأعلى للإنسان. فالأشياء موجودة بالنسبة له، ورؤيتها لا تصدر عن العين الذاتية، بل عن العين الكلية.

إن التعمق في هذا التحليل، يؤدي بنا إلى تفسير سبب إهمال البُعد الثالث عند الفنان المسلم، وسبب إظهار الأشياء مرئية من عدد لا يحصى من زوايا النظر، ثم سبب التسطيح وعدم التحجيم في بناء الأشكال، وسبب عدم الفراغ في سطح اللوحة، وسبب خط الأفق اللولبي في توزيع الهيئات البشرية.

إن الوظيفة الأساسية للتصوير، هي الدلالة الفكرية أو الأدبية، وبهذا المعنى يصبح الفن لغة تشكيلية لأفكار عامة. ولكن الفن الإسلامي يبدو على النقيض؛ متحررًا

إن الموقف من الأشياء والطبيعة، تحدده في الغرب الآلة وقواعد علم الضوء الثابتة، أما في الفن الإسلامي، فإن الموقف من المرئيات يحدده مفهوم الله الذي له ملكوت السموات والأرض، وهو المنطلق والمثل الأعلى للإنسان.

من هذه الوظيفة مستقلاً بذاته. فاللوحة في مخطوطة شأنها شأن موضوع تصويري على سجادة، أو جدار بناء، أو على آنية ما، تبقى مستقلة عن الواقع بل تحمل واقعًا جديدًا كما يقول "وررنفر"، وهي في نزوع مستمر للتحرر من الدلالة المحددة تصويريًا.

ومن هنا لا يكون غريبًا أن نجد الباحث د. عفيف البهنسي، يؤكد على أن قوانين الوجود المادي للأشياء التي يحكمها في الغرب علم المنظور وعلوم أخرى، يقابلها لدى العرب المسلمين قوانين روحية يحكمها مفهوم الوجود الأزلي (الله) ومفهوم فناء الأشياء وعلاقاتها بالوجود الأزلي.

ويجب أن نلاحظ أن من أهم الخصائص الجمالية للفن الإسلامي، أن الشكل المطلق أشد أهمية من لبوسه المادي. فالمثمن -مثلاً- مطبق في المساقط المعمارية، كما هو الحال في المقرنصات الجصية والسيراميك ورسوم المخطوطات.

براعة المسلمين في الفنون

لقد برع المسلمون أكبر ما برعوا في أربعة أشكال من الفنون: أولها التوريق المتشابك، وثانيها التحوير، وثالثها التلوين، ورابعها الكتابة الخطية. والتوريق المتشابك أو الرقش، هو الفن الذي تجتمع فيه الزخرفة العربية، وقد سماه الغربيون "أرابيسك" يعنون بذلك فن العرب الأصيل المذهل.

وهذا التوريق هو الإجادة في استخدام الخطوط متلاقية متعانقة ثم متجافية متهامسة. ومن الطبيعة يستمد الراقش العناصر الأولى لفنه من ساق نبات أو ورقة، ثم ينضم الخيال إلى الإحساس بالتناسب الهندسي، ليتكون بعد هذا الشكل الزخرفي الهندسي الذي يرمز إلى نفس المسلم في تطلعها إلى الله ﷻ.

وخطوط الرقش ألوان لا نهائية، وكأنها تفضي إلى نهاية غير معلومة. وقد يأتي من هذه الألوان ما يخضع إلى تناسق، فيكون أقرب إلى الفن التجريدي الذي ظل مجهولاً عند الأوربيين إلى عهد قريب.

والتحوير الذي يمتلئ به هذا الفن هو وليد التوريق المتشابك، إذ أساسه تشكيل الفنان لما جمع من عناصر فنية بذوقه الفني، تشكيلاً تكيفه روحه.

من هذا كانت المباعدة في الزخرفة الإسلامية بين روح المصور وبين الأشكال الأصلية للكائنات الحية. وإذا نزع إلى استخدام مثل ذلك مضطرًا، فإنه يعمد إلى تجزئة عناصرها، ثم بنائها على شكل مكرر، فإذا الشكل قد تحول إلى وحدة زخرفية يسودها التكرار، ويشيع فيها حس موسيقى رهيف.

وللون أثره الهام في إضفاء إشراقة حلوة على أشكال الرقش الإسلامي، كما يكشف عن إحساس مرهف بالألوان. وكذا، كان للخط -هو الآخر- فيضه بالنبض على يد الفنان المسلم، إذ كان يحمل أشرف رسالة عن الله تعالى إلى نبيه الكريم يسجلها الناس مرسومة مقروءة.

كانت تلك رسالة الخط، لذا كان هذا التنسيق والتجميل بين جلالين؛ الجلال السماوي، والجلال الدنيوي. إن هذه النبضات الوجدانية التي أتى بها الإسلام في روح الفنان المسلم، والتي تكمن وراء كل عمل فني إسلامي، هي التي جعلت الفن الزخرفي العربي يتألق في البلاد العربية والمستعربة.

المنظور الروحي في الفن

ويبدو "المنظور الروحي" واضحًا في الرقش العربي. ففي التكوينات الهندسية تصبح الأشكال الواقعية مجردة عندما تنقلب أشكال هندسية تتداخل فيما بينها بتناسق جميل، منفصلة نهائيًا عن مدلولها وعن نسبياتها، إذ لا مجال فيها إلى بداية أو نهاية، أو إلى أي إسقاط أو إشعاع، ولكن ثمة انديا في تكوين هذه الأشكال المجردة.

ومع أن الفن العربي في بدايته تأثر بالفنون القائمة قبل الإسلام -وهذا شيء طبيعي- والمتأثرة بالتعاليم الإغريقية التي تُمجِّد المحاكاة، وتؤكد أهمية القانون العلمي في العمل الفني، فإن الفنان العربي استمر بعد الإسلام محتفظًا بطابعه الروحي الذي تجلى واضحًا في رسم الأشخاص وفق "المنظور الروحي".

ويوضح لنا الباحث عفيف البهنسي حقيقة "المنظور الروحي"، من حيث أن مهمة الفنان العربي كانت دائمًا التعبير عن الرسم بذاته. لقد أهتم العربي المسلم في رسمه وتصويره بعدم مضاهاة الله في خلقه، فلقد درج على عدم تصوير البُعد الثالث والتعبير عنه. وكذلك فإن الأشياء والمشاهد ترى من خلال عين الله المطلقة التي لا تحدها زاوية بصر ضيقة، على عكس المفهوم الغربي الذي يجعل الأشياء والمشاهد مرئية من خلال عين الإنسان، وشتان بين رؤية شاملة ورؤية ضيقة بين رؤية الله ورؤية الإنسان.

وإذا كان الموضوع في المنظور الروحي لا يرى من خلال عين الإنسان بل من خلال عين الله، فإن هذا الموضوع ينفصل عن الواقع ويصبح شيئًا جديدًا، وواقعًا جديدًا يفرض نفسه على الناظر، في حين تبقى المواضيع الخاضعة للمنظور البصري تابعة لشروط الناظر الذي يحدد مفاهيمه العلمية وقوانينه المكتسبة على الفن، وهذا مخالف لأهم مبادئ الفن وهي الطرافة والجدة.

وهكذا فإن المنظر في لوحة مسطحة، يبقى حرًا مطلقًا لا تقيده قواعد المنظور، وتقوده في مسارها المتعمق في البعد الثالث من خلال زاوية البصر المحددة. إن هذا التعدد والاستقلال في عناصر الموضوع، يجعل اللحظة الزمنية للعمل الفني متعددة بتعدد هذه العناصر. إن هدف الفنان المسلم هو أن يجعل الأشياء مجابهة للناظر من خلال أجمل ما فيها، دون تشويه قواعد المنظور حقيقتها وجمالها لحساب الرؤية المنظورية العلمية.

وإذا كان المنظور الخطي -كما يرى الباحث البهنسي- يسعى إلى إبراز البعد الثالث، أو العمق بأسلوب رياضي علمي، فإن المنظور الروحي لم يتخل عن هذا البعد تمامًا، بل انطلق وفق سيرة مختلفة؛ فالعين لا تنظر إلى الأشياء نظرة محددة، بل هي تنتقل من بؤرة الصورة إلى حواشيها بحركة متصلة لولبية. ويمر خط النظر من

hiragate.com

أهم النقاط القائمة على الأشكال، وهي العين واليد.

ولقد قام "بابا دوبولو" (Papa Dopoulo) في كتابه "جمالية الفن الإسلامي" بإثبات هذه الطريقة؛ فاستعرض مئات من المنمنمات فلم ير من بينها ما يخرج عن هذه القاعدة. والواقع أن هذا البعد الثالث اللولبي (Spirale)، يتماشى مع المفهوم التصاعدي الروحاني للمنظور في الفن الإسلامي حسبما شرحناه.

وفي الحقيقة فهذا المنظور الروحي الذي نجده واضحًا في الفن الإسلامي -وله أهميته الكبيرة في تفسيره الفلسفي- نجد شبيها له في الفلسفات المثالية والروحية، خاصة عند الأفلاطونية وفي أوائل المسيحية، والتي أعرض عنها الغرب خاصة في العصر الحديث.

وهذا بالفعل ما حققه الفنان المسلم في لوحاته التجريدية، التي كان يحاول أن يجعلها معبرًا للامتناهي، ووسيطًا لبصيرة المؤمن الساعي للوصول إلى حدس الله، وإدراكه إدراكًا روحيًّا وجدانيًّا. وهكذا كان الفن الإسلامي المتمثل كثيرًا بصور تجريدية رائعة أفضل وسيلة تعبير عن تلك القيم المطلقة التي اعتنقها الإنسان المسلم والنابعة من كتابه المقدس ومن تعاليم نبيه الروحية. وقد رأينا من قبل الخصائص الأساسية للفن التشكيلي الغربي، وهو فن قومي مرتبط بجذوره الرومانية، وهو فن واقعي مثله الأعلى في الشكل الإنساني.

أزمة الفن الغربي

هل استمرت هذه الخصائص ثابتة في الفن الغربي، والتي تجعله على الطرف النقيض مع الفن الإسلامي؟

الحق أنه لم يلبث عصر النهضة -وقد وصل إلى قمته في القرن السادس عشر- حتى ظهرت النهجية (Manierisme)، وظهر بعدها بسرعة فن الباروك (Baroque) والروكوكو (Roccoco)، هذه الاتجاهات التي اعتبرها مؤرخو الفن في الغرب ضلالاً وانحرافًا، بل سقوطًا وانحطاطًا.. على الرغم من أنها استمرت قائمة حتى الثورة الفرنسية. وكان أول ما قامت به الثورة، أن نقضت هذه الفنون، وهي تقضي على الحكام والسادة الذين احتضنوا هذه الفنون.

ولكن ما إن انتهى عهد الثورة، حتى تفجرت الروح الرومانية، وتفتحت أبواب الإبداع، وظهرت مدارس واتجاهات فنية لا حصر لها.. ولم يكن بمقدور الفن الغربي -بمفهومه القديم- أن يظهر ثانية إلا عن طريق ثورة جديدة. فكانت الثورة الشيوعية عودة للفن الأوربي التقليدية وإن اختلفت أهدافه وموضوعاته. أما اتجاهات الفن في غربي أوربا وفي أمريكا، ما زالت تعاني التشرد بعيدًا عن ملامح الفن التقليدية وإن كانت منسجمة تمامًا مع التطور الصناعي والاجتماعي، ومع المشكلات والتأزمات الحضارية والاجتماعية والنفسية التي يعانيها الغرب اللبرالي.

ويعلل د. البهنسي أزمة الفن في الغرب بسببين: أولاً هو تحول الفن عن مفهومه التقليدي الذي يقوم على الواقعية، واعتبار الإنسان محور الجمال الفني كما هو محور الجمال الطبيعي، والتخبط في مجال البحث عن الطارف والجديد. ثانيًا التعثر في إيجاد مفهوم جديد للفن ينسجم مع بيئته القومية وتطورات العصر.

ولعل الفن العربي والإسلامي بمناخه وألوانه وفلسفته، كان أكثر جاذبية عند فناني الغرب، من أمثال "دولاكروا" (Delacrois)، و"ماتيس" (Matise)، و"بول كلي" (P. Klee) وغيرهم، ممن رأوا في الشرق الشمس واللون والخط المنساب والمواضيع الغريبة.. كل ذلك دون أن يكون من شأنهم البحث الفلسفي والجمالي، ولكنهم قدموا الدليل على مقدرة الفن الإسلامي على التطور السريع، تطورًا متمشيًا مع العصر ومع مفهوم الفن الحديث، كما أنهم وضعوا الفنان المسلم أمام مسؤولياته في العودة إلى تراثه وتقاليده وفنه، لكي يقيم عليها أساليب جديدة معاصرة. ■

(*) رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

المراجع

(١) جمالية الفن العربي، لعفيف البهنسي، عالم المعرفة، العدد:١٤، عام:١٩٧٩.

(٢) أثر العرب في الفن الحديث، لعفيف البهنسي، دمشق، عام:١٩٧٠.

(٢) سر الزخرفة الإسلامية، لبشر فارس، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة.

د. عبد الكريم عكيوي*

اعتبار المآل واستشراف المستقبل
عند النورسي

إذا كان اعتبار المآل قد اصطبغ بصبغة أصول الفقه فظهر كأنه منهج مقصور على النظر في خطاب الشارع بقصد تنزيله على محله، فإن النورسي منحه صفة العموم والشمول فجعله منهجًا في الحياة كلها، وظهر عنده -خاصة- في جانب التربية وترسيخ الإيمان والسلوك، بالإضافة إلى فروع الشريعة من العبادات والمعاملات.

اعتبار المآل في فقه الخطاب الشرعي وتنزيله على محله

إن النورسي ممن يرى أن الأفعال التي تنزل في درجتها عن الوجوب إلى الندب، وخاصة إلى الإباحة، لا بد فيها من اعتبار الآثار التي سيؤول إليه العمل بها ولا يقتصر على ما يترتب في الحال. وهذا يختلف باختلاف مراتب المكلفين وأحوالهم، وما يختلف بهم من الظروف. وهذه القاعدة لم يفصح عنها النورسي صراحة في شكلها النظري، وإنما تستنبط من تصرفاته وما اختاره في مسلكه في العلم والدعوة والسلوك والتربية. وأظهر مثال على ذلك ما اختاره من حياة العفة والكف عن الزواج مع تنصيصه على سنيته، ثم منع تعميم هذا الحكم على غيره. ووجه ذلك أنه -رحمه الله- وضع لنفسه هدفًا عظيمًا، ومقصدًا ساميًا جمعه في إنقاذ الإيمان وإظهار حقائق القرآن. ثم رأى أن بلوغ هذه الغاية عسير، لأن دونها حواجز كثيرة ومعوقات كثيفة. فكيف يخلص إلى غاية عظيمة هي قوام أمة

كاملة، وخصومها قد جمعوا العدد والعدة وأحكموا القبضة على البلاد والعباد، وجردوا حملات ووقفوا أموالاً لتزيين الباطل ونشر الإلحاد، ونصبوا المشانق لمن خالف سبيلهم؟ وكيف السبيل إلى ذلك والأمة في ركود فكري وسياسي؟ فهذه هي الظروف التي حفت بالنورسي وهو يضع غايات في حياته.

فبعد طول نظر وتأمل وتفكير رأى أن هذه الغاية لا تنال إلا بالتضحية والصبر والمصابرة وركوب المعاناة. وفي إعداد نفسه لهذه المعاناة، رصد كل ما يمكن أن يكون سببًا لانكسار المرء أمام معاناة الحياة، أو سببا لغياب الإخلاص عنه، فظهر له أن التعلق بالدنيا ومحبتها والتنعم بأذواقها، مما يسجن النفس ويضعفها عن المقاومة والمغالبة وينال من صفاء الإخلاص. ولهذا حمل نفسه على التجرد من نعيم الدنيا فاختار طريق العفة في أقوى درجاتها فلم يقبل حتى الهديّة. ثم رأى أيضًا أن محبة الأهل والأولاد والحدب الأبوي عليهم مما يحمل على ذلك، فوضع لنفسه حكم الكف عن الزواج. ومما يدل على هذا أن هذه المسألة كانت حاضرة عنده دائمًا، فكان كلما وجد نفسه مسجونًا أو منفيًّا، يحمد الله على صحة مسلكه، لأنه ليس له من الدنيا ما يتعلق به ليداري ويداهن من أجل بقائه.

وفي وجه امتناعه عن الزواج قال: "في الوقت الذي يلزم -لصد هجوم زندقة رهيبة تُغير منذ أربعين سنة- فدائيين يضحّون بكل ما لديهم، قررت أن أضحي لحقيقة القرآن الكريم.. فلأجل أن أتمكن من القيام بخدمة القرآن على وجهها الصحيح بإخلاص حقيقي، ما كان لي بد من ترك زواج الدنيا الوقتي -مع علمي بأنه سنة نبوية- بل لو وُهب لي عشر من الحور العين في هذه الدنيا، لوجدت نفسي مضطرة إلى التخلي عنهن جميعًا لأجل تلك الحقيقة؛ حقيقة القرآن.. لأن هذه المنظمات الملحدة الرهيبة تشن هجمات عنيفة، وتدبر مكايد خبيثة، فلا بد -لصدها- من منتهى التضحية وغاية الفداء، وجعل جميع الأعمال في سبيل نشر الدين خالصة لوجه الله وحده، من دون أن تكون وسيلة لشيء مهما كان.. لذا تركت عادة الزواج الذي أعلم أنها

يرى النورسي أن نعيم الدنيا ولذاتها ليس مقصودًا لذاته، لأنه ليس جمالاً حقيقيًّا وإنما هو لذة متوهمة. ودليل ذلك أنه ليس نعيمًا خالصًا، وإنما مشوب بمشقة العيش وخطوب الحياة، ولأنه زائل فانٍ، وحقيقة الجمال تقتضي البقاء وليس الزوال.

سنة نبوية لئلا ألج في محرمات كثيرة، ولكي أتمكن من القيام بكثير من الواجبات وأداء الفرائض، إذ لا يمكن أن تقترف محرمات كثيرة لأجل أداء سنة واحدة".

ويعلم النورسي أن هذا المسلك قد يلقى من يعارضه بدعوى مخالفته للشريعة، ولهذا أورد من الأدلة ما يجعل هذا المسلك من روح الشريعة. من ذلك أن تاريخ المسلمين يشهد على عمل كثير من علماء الإسلام بمنهج اعتبار المآل في الأعمال خاصة في قسم المباح، فكفوا عن المباحات من الدنيا وكفوا عن الزواج. وإن من كان في مثل مقامه خاصة فيريد أن يكون دليلاً على الله في مثل زمانه، لا يعتبر خارجًا عن الشريعة إذا كان قصد مثل قصده.

وليس هذا عنده مسلكًا عامًّا، إنما هو استثناء من الحكم الأصلي بحسب مقام الشخص وأحواله. ولهذا ينبه طلبته خاصة لهذه القاعدة في قوله: "لا نقول لطلاب النور: تخلوا عن الزواج، دعوه للآخرين، ولا ينبغي أن يقال لهم هذا الكلام. ولكن الطلاب أنفسهم على مراتب وطبقات. فمنهم من يلزم عليه ألا يربط نفسه بحاجات الدنيا -قدر المستطاع- في هذا الوقت، وفي فترة من عمره، بلوغًا إلى التضحية العظمى والثبات الأعظم والإخلاص الأتم. وإذا ما وجد الزوجة التي تعينه على خدمة القرآن والإيمان، فبها ونعمت، إذ لا يضر هذا الزواج بخدمته وعمله للقرآن. ولله الحمد والمنة، ففي صفوف طلاب النور كثيرون من أمثال هؤلاء، وزوجاتهم لا يقصرن عنهم في خدمة القرآن والإيمان، بل قد يفقن أزواجهن ويسبقنهم لما فطرن عليه من الشفقة التي لا تطلب عوضًا، فيؤدين العمل بهذه البطولة الموهوبة لهن بإخلاص تام".

hiragate.com

اعتبار المآل في التربية والسلوك

يبقى مجال التربية والسلوك، أبرز مجال أعمل فيه النورسي هذا الأصل. وقد اهتدى النورسي إلى ذلك من خلال تدبره لآي القرآن الكريم، وطول تفكره في أحوال الكون والإنسان.

فمن القضايا التي أخذت بعقله وسيطرت على تفكيره مسألة الزمان. فالزمان قيد تخضع له كل المخلوقات، فالإنسان والكون بجميع أجزائه الكبيرة والصغيرة، كل ذلك يجري عليه الزمان ضرورة، فهو تحت سلطانه اضطرارًا. ومن آثار ذلك نفاذ الزوال إليها وجريان الفناء عليها. ومعنى هذا، أن الحياة حلقات متوالية يؤدي بعضها إلى بعض، ويتوقف بعضها على بعض، وإن حياة الإنسان تدل على هذا بوضوح. إن أحوال هذه الدنيا لا قرار فيها ولا ثبات، كلها تقلبات تلحّ على فكر الإنسان بهذا السؤال: "إن جميع ما نملك لا يستقر ولا يبقى في أيدينا، بل يفنى ويغيب عنّا، أليس هناك من علاج لهذا؟ ألا يمكن أن يحل البقاء بهذا الفناء؟!".

فالعمر ليس على صفة واحدة، وإنما محطات متسلسلة تؤدي كل منها إلى التي تليها ضرورة. فالطفولة تؤدي إلى الشباب، والشباب إلى الرشد، والرشد إلى الكبر، والكبر إلى الهرم، ولا يعقب الحياة إلا الموت. فلماذا لا يتخلف الترتيب ولو مرة واحدة أو عند شخص واحد على الأقل؟ إنه قانون مطرد قطعًا، لأنه من آثار اسم الله المحيي، واسم المميت، واسم القهار، وغيرها من أسماء الله الحسنى التي من آثارها حركة التجدد في الكون في كل لحظة.

والفائدة التي أقامها النورسي على هذه الحقيقة في مجال التربية والسلوك، هي أن كل لحظة من لحظات حياة الإنسان تتوقف في صفتها على استحضار المكلف للحظة التي تؤول إليها. فليس سواء في الحال والسلوك من يحيا مستحضرًا مستقبل أيامه ومن يحيا غافلاً عنه.

ولهذا فإن مآلات الأحوال ومستقبلات الأيام والحياة ملك على النورسي أقطار نفسه وتفكيره، فكان مستحضرًا لها مستشرفًا لتفاصيلها.. فكثيرًا ما تجده يتحدث عن المآلات كأنه يراها في شاشة معنوية منصوبة أمامه، وأحيانا ينتقل بنفسه وبالقارئ معه في سفر خيالي إلى بعض محطات المستقبل فيستشرف كل التحولات ويصور جميع الصفات التي تؤول إليها الأحوال. فالقوة مآلها الضعف، والغنى مآله الفقر، والشباب مآله الهرم والشيخوخة، وجمال الصورة مآله قبح الهرم، وفتوة الجسم مآلها العجز، والحياة مآلها الموت، والوجود مآله الزوال، والحياة الدنيا مآلها الفناء، والدار الدنيا كلها مآلها ومنتهاها إلى الآخرة.. فالدار الآخرة -إذن- غاية كل شيء ومستقبل كل مخلوق، وكل مستقبل من هذه المستقبلات إنما هو اقتراب منها وإيذان بدنوها.

والغرض المقصود من هذا أن يحصل الجمع في التفكير بين الحال والمآل، فالوقوف عند الحال وحده قصور. فعلى هذا النحو، تحدث النورسي في رسائله عن الإنسان والحياة، فلا يذكر الشيء إلا مقرونًا بمآله، ولا اللحظة من الحياة الخاصة للفرد المكلف أو للحياة العامة في الكون إلا مستحضرًا مآلها، لما في ذلك من التربية للمكلف.

من ذلك -مثلاً- أنه لما كان في السجن، دخل في لحظة تفكير عميق يتأمل فيها شاشة معنوية أوحت له بها مشاهد الشباب، يقول: "كنت في أحد أيام عيد الجمهورية جالسًا أمام شبّاك سجن "أَسْكي شَهير" الذي يطل على مدرسة إعدادية للبنات.. وكانت طالباتها اليافعات يلعبن ويرقصن في ساحة المدرسة وفنائها ببهجة وسرور، فتراءت لي فجأة على شاشة معنوية ما يؤول إليه حالهن بعد خمسين سنة، فرأيت أن نحوًا من خمسين من مجموع ما يقارب الستين طالبة، يتحولن إلى تراب ويعذبن في القبر، وأن عشرة منهن قد تحولن إلى عجائز ذميمات بلغن السبعين والثمانين من العمر شاهت وجوههن وتشوه حسنهن، يقاسين الآلام من نظرات التقزز والاستهجان من الذين كنّ يتوقعن منهم الإعجاب والحب، حيث لم يصنّ عفتهن أيام شبابهن.. نعم، رأيت هذا بيقين قاطع، فبكيت على حالهن المؤلمة بكاء ساخنًا أثار انتباه البعض من زملاء السجن، فأسرعوا إليّ مستفسرين، فقلت لهم: "دعوني الآن وحالي.. انصرفوا عني". أجل، إن ما رأيته حقيقة وليس بخيال،

hiragate.com

إذ كما سيؤول هذا الصيف والخريف إلى الشتاء، فإن ما خلف صيف الشباب ووراء خريف الشيب، شتاء القبر والبرزخ. فلو أمكن إظهار حوادث ما بعد خمسين سنة من المستقبل مثلما يمكن ذلك لحوادث الخمسين سنة الفائتة -بجهاز كجهاز السينما- وعرضت حوادث أهل الضلالة وأحوالهم في المستقبل، إذن لتقززوا ولتألموا ولبكوا بكاء مرًّا على ما يفرحون منه الآن ويتلذذون به من المحرّمات في الوقت الحاضر".

وتحت هذا الأصل، حمل المصائب التي تنزل بالإنسان على أنها من رحمة الله، لأنها تحمل المبتلى على التفكر في المآل واستحضار المستقبل، وإن العافية قد تكون بلاء وفتنة لما تسببه من توهم الأمن والسلامة فتحصل الغفلة عن المآل وينسى المستقبل. فعن المرض والصحة قال مخاطبًا المريض: "إن قسمًا من أمثالك، يزعزعون حياتهم الأبدية بل يهدمونها مقابل متاع ظاهري لساعة من حياة دنيوية، وذلك لمضيّهم سادرين في الغفلة الناشئة من بلاء الصحة، هاجرين الصلاة، ناسين الموت، وغافلين عن الله ﷻ. أما أنت فترى بعين المرض القبرَ الذي هو منزلك الذي لا مناص من الذهاب إليه، وترى كذلك ما وراءه من المنازل الأخروية الأخرى، ومن ثم تتحرك وتتصرف على وفق ذلك. فمرضك -إذن- إنما هو بمثابة صحةٍ لك، والصحة التي يتمتع بها قسم من أمثالك إنما هي بمثابة مرضٍ لهم".

ومن آثار هذا المسلك أيضًا عند النورسي، أن نعيم الدنيا ولذاتها ليس مقصودًا لذاته، لأنه ليس جمالاً حقيقيًّا وإنما هو لذة متوهمة. ودليل ذلك أنه ليس نعيمًا خالصًا، وإنما مشوب بمشقة العيش وخطوب الحياة، ولأنه زائل فانٍ، وحقيقة الجمال تقتضي البقاء وليس الزوال. ومعنى هذا أن نعيم الدنيا ليس مقصودًا في الحال لأنه غير خالص، ثم لأنه قد يورث عذابًا غامرًا وشقاء سرمديًّا، مثل نزوة يقضي بها لذة عابرة تورث أمراضًا جسدية ونفسية وعقلية، وتؤول إلى عذاب في الآخرة. وليس من الجمال واللذة شهوة يسيرة عابرة تؤول إلى شقاء عظيم دائم. فلم يبق لنعيم الدنيا من

إذا كان اعتبار المآل قد اصطبغ بصبغة أصول الفقه فظهر كأنه منهج مقصور على النظر في خطاب الشارع بقصد تنزيله على محله، فإن النورسي منحه صفة العموم والشمول فجعله منهجًا في الحياة كلها.

مقصد في الحال إنما المقصد منه المآل. فالإنسان في الدنيا يرشح نفسه ويعدها لكمال الجمال وتمام السعادة عند رؤية الله تعالى الجليل الجميل في بحبوحة الجنة، ومن رحمة الله به أن جعل له لذة الدنيا بمنزلة قبس يسير وظل حقير من اللذة من أجل التذكير وفتح الشهية إلى هذا المقام. وهذا هو الوجه المحبوب شرعًا من الدنيا، لأنه يجعل لذات الدنيا طريقًا سالكًا إلى مرضاة الله تعالى، ويجعل الدنيا معرضًا لتجليات أسماء الله الحسنى وإظهار آثارها الجميلة.

ولعل قائلاً يقول: أليس التفكر في هذا المآل له مفاسد لأن فيه شؤمًا من الحياة، والمطلوب التفاؤل وتحريك قوى الإبداع والعمل في الدنيا؟ إن النورسي يسعف في الجواب فيبين أن هذا المشرب وحده هو الذي يورث التفاؤل واللذة ويمنح القوة المعنوية الكافية للحياة. ويكفي من ذلك أن النورسي نفسه بعد أن سلك هذا المسلك، كانت حياته كلها حياة جد وعمل وصبر ومصابرة على تحمل للمعاناة، مع لذة نفسية وروحية غامرة؛ فبعد أن وجد نفسه وحيدًا منفيًّا في "بارْلا"، ممنوعًا من التواصل مع الناس، يعاني آلام المرض والشيخوخة والغربة، يذهب ويجيء في وديان "بارلا" حزينًا وحيدًا، إذا بنور من أنوار القرآن الكريم يعلو قلبه لمّا قرأ قول الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(القصص:٨٨)؛ ففكر في مآله ومآل الدنيا كلها فوجد اللذة والسلوان، قال رحمه الله:

"أجل، رأيت نفسي بسرّ هذه الآية الكريمة، وعبر تلك الوديان الخالية، ومع تلك الحالة المؤلمة.. رأيتها على رأس ثلاث جنائز كبرى الأولى: رأيت نفسي كشاهد قبر يضم خمسًا وخمسين سعيدًا ماتوا ودفنوا في حياتي، وضمن عمري الذي يناهز الخامسة والخمسين

hiragate.com

سنة. الثانية: رأيت نفسي كالكائن الحي الصغير جدًّا -كالنملة- يدبّ على وجهه في هذا العصر الذي هو بمثابة شاهد قبر للجنازة العظمى لمن هم بنو جنسي ونوعي، والذين دفنوا في قبر الماضي منذ زمن آدم عليه السلام. أما الثالثة: فقد تجسّمت أمام خيالي -بسرّ هذه الآية الكريمة- موت هذه الدنيا الضخمة، مثلما تموت دنيا سيارة من على وجه الدنيا كل سنة كما يموت الإنسان. وهكذا فقد أغاثني المعنى الإشاري للآية الكريمة: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾(التوبة:١٢٩)، وأمدني بنور لا يخبو فبدد ما كنت أعانيه من الحزن، واهبًا لي التسريَ والتسلي الحقيقي. نعم، لقد علمتني هذه الآية الكريمة أنه ما دام الله ﷻ موجودًا، فهو البديل عن كل شيء، وما دام باقيًا، فهو كافٍ عبده. وإن تجليًا من تجليات نوره العميم، يمنح تلك الجنائز الثلاث، حياة معنوية أيما حياة، بحيث تظهر أنها ليست جنائز، بل ممن أنهوا مهامهم ووظائفهم على هذه الأرض فارتحلوا إلى عالم آخر".

استشراف المستقبل

ومن منهج النورسي أيضًا، استشراف المستقبل عن طريق التدبر في أحوال الحاضر وتحكيم سنن الاجتماع وقوانين المعاش، ومحاولة الاهتداء إلى ما تؤول إليه الأحوال. ففي غمرة التحولات التي حصلت في الدولة العثمانية نهاية القرن التاسع عشر الميلادي وبداية القرن العشرين من إعلان الدستور ورفع شعار الحرية، كان للنورسي نظر دقيق، إذ انتهى إلى أن هذا التحول إنما هو سير نحو العلمانية؛ لأن الحرية في ظل تلك الظروف، لا تعني سوى شيئًا واحدًا هو التحلل من الدين. ولهذا، أعلن عن نتيجة نظره فقال مستشرفًا مستقبل العالم الإسلامي ومستقبل أوروبا بالنسبة لعصره:

"كان سعيد القديم يخبر طلابه -في مؤلفاته القديمة، ويقول لهم مكررًا: ستحدث زلزلة اجتماعية بشرية عظيمة، زلزلة مادية ومعنوية.. حتى إنه في السنة الأولى من عهد الحرية، سأل الشيخ بخيت -مفتي الديار المصرية- سعيدًا القديم: ما تقول في حق هذه الحرية العثمانية والمدنية الأوربائية؟ فأجابه سعيد: إن الدولة العثمانية حاملة بدولة أوروبائية وستلد يومًا ما، وإن أوروبا حاملة بالإسلام وستلد يومًا ما".

وبالنسبة لحركة الإصلاح في العالم الإسلامي، فإنه من خلال نظرة فاحصة يحكمها الإنصاف والتجرد عن العواطف، رأى أن الركود الفكري والعلمي والسياسي والاقتصادي في العالم الإسلامي في عصره، أكبر من أن يتم إصلاحه في ظرف وجيز، فخلص إلى أن التغيير المنشود لن تكتحل عينه برؤيته وشهوده، فخبر حال عصره، ووضع نفسه موضعها، وجعل غايته أن يبذر بذور الربيع، أما نموها واستواءها، فذلك ليس له وليس مما ينال في زمنه أو قريب منه، لكنه آت، لأن زمانه زمان الغرس وسيأتي الحصاد في زمانه، لكن لا حصاد من غير غرس.

ومن حكمة النورسي وعمله بمنهج المقاصد والغايات، استشرافه لمستقبل دعوته ومآل فكره ورسائله التي تفانى في نشرها هو وطلبته. فقد خبر -رحمه الله- طلبته فرأى شدة محبتهم له وقوة تعلقهم برسائل النور بسبب ما وجدوا فيها من السلوان الفكري والروحي، وآنس منهم حسن الخلُق وعلو الهمة والتفاني في أنوار الهداية القرآنية التي أشربتها قلوبهم من خلال رسائل النور، ورغبتهم الشديدة في نشرها وتبليغها. ومن خلال كل ذلك تصور مآل دعوته ورسائله بعد موته، وهو ما عبر عنه بقوله: "أما من حيث العمل للقرآن، فلقد وهب لي الله ﷻ إخوانًا ميامين في العمل للقرآن والإيمان، وستؤدى تلك الخدمة الإيمانية عند مماتي في مراكز كثيرة بدلاً من مركز واحد. ولو أسكت الموت لساني فستنطلق ألسنة قوية بالنطق بدلاً عني وتديم تلك الخدمة.. فآمل أن يكون موتي -كذلك- وسيلة لخدمة القرآن أكثر من حياتي". ■

(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير / المغرب.

المراجع

(١) كليات رسائل النور (الملاحق، الكلمات، الشعاعات، اللمعات، المكتوبات)، دار النيل للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

hiragate.com

أ.د. حنفي محمود مدبولي*

الوباء

بين حقائق العلم ووحي السماء

لماذا تعود الأوبئة من جديد رغم استخدام المضادات الحيوية أو اللقاحات أو كليهما؟ ولماذا تعود مع التقدم المذهل في استخدام عناصر الأمان الحيوي والكشف المبكر لهذه الأوبئة؟ أين تختفى مسببات الأوبئة حتى تعود ثانية في صورة متحورة تضلل بها جهاز المناعة؟ كيف يمكن الحد من انتشارها؟ وهل الصورة الجديدة التي يظهر به مسبب الوباء أشد فتكًا بالبشر أم أقلّ خطرًا عليهم؟

لقد انتشرت الأوبئة على اختلاف أنواعها ومسبباتها المرضية، على مستوى العالم، سواء في السنين قبل الميلاد أو في السنين بعد الميلاد، وما تم حسره من هذه الأوبئة هو قليل القليل. وهناك الكثير من مثل هذه الأوبئة لم يسجل، وذلك لقلة الوسائل المؤدية إلى ذلك في العالم القديم في كثير من دول العالم وحضاراته القديمة. إلا أن بعض الحضارات -مثل حضارة المصريين- سجلت بعض من هذه الأوبئة ونقشت أعراضها الإكلينيكية على جدران المعابد، كما حدث في وباءي الجدري وشلل الأطفال؛ حيث تم نقش أعراض المرض في لوحة حجرية بمعبد "سبتاح"، عليها صورة رجل عنده ضمور في عضلات ساقه اليمنى، مما يشير إلى إصابته بشلل الأطفال.

وباء الطاعون

ولقد ذكر "أريللي كوزولوف" في كتابه "الطاعون في منطقة أمنحتب الثالث"، أن الطاعون اجتاح المصريين في سنة ١٦٥٠-١٥٥٠ قبل الميلاد، وفي عام ٥٤١م انتشر الطاعون من مصر إلى الإمبراطورية البيزنطية؛ لاستيرادها الحبوب من مصر، ثم انتشر إلى وسط وجنوب أسيا، وشمال أفريقيا، وشمال وجنوب أوروبا، وأنه قتل ١٠٠ مليون شخص في العالم. وذكر بعض المؤرخين أن الطاعون أطاح من ٥٠-٦٠٪ من سكان العالم بين عامي ٥٤١-٧٠٠م، وأطاح بهذه الإمبراطورية لأن الإمبراطور "جوستنيان" مات بسببه، وقد سمي هذا الطاعون بـ"طاعون جوستنيان" . وفي سنة ٦٣٩م ظهر طاعون من النوع الدملي انتشر في مدينة "عمواس" بفلسطين، وانتشر منها على الشام وقتل أكثر من ٢٥,٠٠٠ شخص. وفي الفترة ما بين ١٣٠٠-١٣٥٠م ظهر في دول أوروبا والبحر المتوسط، وقتل من إنجلترا وحدها حوالي ٤-٧ مليون شخص، كما قتل من الأوروبيين ٣٠-٦٠٪ أي حوالي ٢٥-٥٠ مليون إنسان، وقلل عدد سكان العالم من ٤٥٠ مليون شخص، فسمي بـ"الموت الأسود" أو "الطاعون الأسود".

وفي الفترة ما بين ١٦٤٧-١٦٥٢م، ظهر الطاعون الأكبر في "Seville"، وفي ١٦٦٥- ١٦٦٦م ظهر في لندن وقتل فيها أكثر من ١٠٠,٠٠٠ (أي ٢٠٪ من سكانها). وفي فرنسا بين عامي ١٧٢٠-١٧٢٢م، ظهر الطاعون الأكبر في "مارسيليا"، وقتل أكثر من ١٠٠,٠٠٠ نسمة من سكانها.

وظهر الوباء الثالث من الطاعون الدملي بين عامي ١٨٥٥-١٩٥٠م؛ بدأ في الصين، وانتشر في الدول المجاورة لها، واستمر حتى عام ١٩٥٠م، وخمد بعد أن وصل عدد الوفيات إلى ٢٠٠ نسمة في اليوم على مستوى العالم، وقتل أكثر من ١٢ مليونًا في الصين والهند.

وباء الإنفلونزا

وأما عن أوبئة الإنفلونزا، فإن الطبيب اليوناني "هيبوقراط"، هو أول من وصف الأنفلونزا في عام ٤١٢ قبل الميلاد. وأول جائحة الأنفلونزا التي تم تسجيلها كان في عام ١٥٨٠م، ومنذ ذلك الحين وقعت جوائح الأنفلونزا كلّ ١٠ سنوات أو ٣٠ عامًا. كما انتقل هذا الوباء من أوروبا إلى أمريكا عام ١٤٩٣م، وقتل ٩٠٪ من السكان الأصليين في أمريكا، حيث كانت أجسامهم خالية تمامًا من المناعة ضد هذا الفيروس.

وأثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٨-١٩١٩م) اجتاح العالم فيروس الإنفلونزا الإسبانية، وأصيب حوالي ٥٠٠ مليون إنسان من هذا الوباء، وقدِّر عدد الوفيات من ٢٠ إلى ١٠٠ مليون فرد في العالم. وسمي هذا الفيروس بـ"الإنفلونزا الإسبانية"؛ لأن إسبانيا هي التي أعلنت عنه، وكانت دولة غير مشتركة في هذه الحرب، ولم تعلن أي دولة متحاربة عنه مخافة بث الرعب والذعر في الجنود المحاربين وتضييع معنوياتهم في القتال.

وفي أبريل ٢٠٠٩م انتشر فيروس إنفلونزا الخنازير في جميع دول وقارات العالم، إلا أن حدته ما زالت ضعيفة، وذلك مقارنة بالأوبئة التي سبقته. وقدِّرت الإصابات ١,٢٠٥,٤٣٤، والوفيات حتى ٢٣ نوفمبر ٢٠٠٩م وصلت إلى ١٢,٧٢٣ نسمة.

وباء الكوليرا

وظهر أول وباء للكوليرا بين عامي ١٨١٦-١٨٢٦م، واقتصر على شبه القارة الهندية. بدأ انتشار هذا الوباء في البنغال، ثم انتشر في مختلف أنحاء الهند مع حلول عام ١٨٢٠م. وقد لقي حوالي عشرة آلاف من القوات البريطانية، وعدد لا يحصى من الهنود مصرعهم خلال هذا الوباء. وظهر في الصين وإندونيسيا، كما تقدر حالات الوفاة في الهند بين عامي ١٨١٧-١٨٦٠م نحو ١٥ مليون شخص.

وعاود المرض ظهوره في الوباء الثاني بين عامي ١٨٢٩-١٨٥١م، ووصل إلى روسيا والمجر وألمانيا في عام ١٨٣١م، وإلى لندن وفرنسا وكندا والولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٣٢م. وتقدر الخسائر من هذا الوباء في المملكة المتحدة أكثر من ٥٥,٠٠٠ شخص. كما وصل عدد الوفيات في الهند وحدها إلى ٢٣ مليون فرد، والوفيات في روسيا في نفس الوقت تزيد عن مليوني فرد.

hiragate.com

وظهر الوباء الثالث من الكوليرا في الفترة ١٨٥٢-١٨٦٠م في شرق أندونيسيا، كما غزت الصين في وقت لاحق، واليابان في عام ١٨٥٤م، والفلبين في عام ١٨٥٨م، وكوريا في عام ١٨٥٩م. وفي عام ١٨٥٩م تفشى في ولاية البنغال مرة أخرى، مما أدى إلى انتقاله إلى إيران، والعراق، جزيرة العرب، وروسيا. وظهر وباء الكوليرا الرابع والخامس والسادس في أعوام مختلفة، أدى إلى وفاة مئات الآلاف من الناس. كما ظهر هذا الوباء مرة أخرى في جنوب أفريقيا من عام ٢٠٠٨م إلى ٢٠٠٩م مع ٩٦,٥٩١ حالة إصابة، ووفاة ٤٢٠١ نسمة، حسب تسجيل منظمة الصحة العالمية.

وباء الإيبولا

ووباء حمى الإيبولا النزفية، مرض فيروسي حاد، يتميز غالبًا بإصابة الفرد بالحمى، والوهن الشديد، والآلام في العضلات والصداع، والتهاب الحلق، ومن ثم التقيؤ والإسهال، وظهور طفح جلدي، واختلال في وظائف الكلى والكبد، والإصابة في بعض الحالات بنزيف داخلي وخارجي على حد سواء. وتتفاوت نسبة الوفيات من فاشية إلى أخرى بمتوسط ٥٠٪. وتندلع أساسًا فاشيات حمى الإيبولا النزفية، في القرى النائية الواقعة في وسط أفريقيا وغربها، بالقرب من الغابات الاستوائية المطيرة.

وفي عام ١٩٧٦م ظهرت أولى فاشياته في آن معًا في كل من نزارا، والسودان، ويامبوكو، وجمهورية الكونغو الديمقراطية. وقد حدثت الفاشية الأخيرة في قرية تقع على مقربة من نهر إيبولا الذي اكتسب المرض اسمه منه. وقد أعلنت وزارة الدفاع الإسبانية، أن إسبانيا أصبحت ثاني دولة غربية تنقل إلى أراضيها مريضًا مصابًا بالوباء من غرب أفريقيا، كما ظهرت حالة في أمريكا. وأعلنت منظمة الصحة العالمية أن عدد الوفيات جراء تفشي فيروس "الإيبولا" في ثلاث دول -هي الأكثر تضررًا في غرب أفريقيا- حتى السنوات الأخيرة وصل إلى ٦٥٨٣ شخصًا. وأظهر آخر تحديث للبيانات على موقع المنظمة على الإنترنت، أن ١٨,١٨٨ حالة إصابة سجلت في الدول الثلاث في أسوأ تفش معروف للمرض.

إن الطاعون اجتاح المصريين في سنة ١٦٥٠-١٥٥٠ قبل الميلاد، وفي عام ٥٤١م انتشر من مصر إلى الإمبراطورية البيزنطية؛ لاستيرادها الحبوب من مصر، ثم انتشر إلى وسط وجنوب أسيا، وشمال أفريقيا، وشمال وجنوب أوروبا، وأنه قتل ١٠٠ مليون شخص في العالم.

حراء

وبمناقشة بعض الحقائق العلمية المذكورة هنا نجد الآتي:

لقد أيقن العالم أن الوباء رجز (أي عذاب) على الأمم، من حيث كثرة عدد الإصابات والوفيات والخسائر الاقتصادية، وإرباك الشعوب والدول. وله تأثير ضار على التجارة العالمية، وقطاع السياحة العالمية. لو نظرنا إلى الخسائر البشرية التي أصابت الناس من جراء بعض الأوبئة، فنجد أن الذين ماتوا من أوبئة الطاعون يقدّر بأكثر من ٢٠٠ مليون إنسان، ومن أوبئة الإنفلونزا بأكثر من ١٢٠ مليون شخص، ومن أوبئة الكوليرا بأكثر من ١٠٠ مليون فرد.. هذا بخلاف الأوبئة الأخرى التي أصابت البشرية، مثل وباء شلل الأطفال، والحصبة، والملاريا، والإيبولا، والأيدز الذي حصد وحده حتى الآن ٢٥ مليون إنسان من سكان العالم.

هذا بخلاف الخسائر الاقتصادية الناجمة عن نقص الأيدى العاملة (سواء بالموت أو بالإصابة من الوباء)، والأموال التي استخدمت في دفن الموتى، والمقابر الجماعية، والأموال التي استخدمت في العلاج، والأموال التي استخدمت في تطهير الأماكن والمستشفيات من جراء هذه الأوبئة، مما يؤثر بالسلب على الناتج الإجمالي للعالم.

ولنا أن نتسائل لماذا تتجدد الأوبئة ويبقى منها في الأرض شيء؟ وأين بقاؤها؟

الرسول ﷺ يبيّن صفات الوباء

والعجب العجاب في مجال الأوبئة، أن يتحدث الرسول ﷺ ويجيب على هذه الأسئلة وغيرها، ويبيّن صفات الوباء، وتواجده وانتشاره، وعودته، وزمن نزوله، والطريق الأمثل للحد من انتشاره، من خلال الحجر الصحي. وكل هذه الإشارات منه ﷺ في وقت لم تكن

فيه أدوات العلم متوفرة، تؤكد أن كلامه وحي من الله ﷻ، ورسالته حقّ، كما تعلن أن الإسلام هو دين العلم والعمل على حد سواء.

وفي حديثين صحيحين له ﷺ مرتبطين ببعضهما في وحدة الموضوع؛ وهي كيفية انتشار الأوبئة وخلودها في الطبيعة، وبيان طرق الحد من انتشارها والوقاية منها.

يقول ﷺ في حديث الإمام أحمد واللفظ له: عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: "إن هذا الوباء رجزٌ أهلك اللهُ به الأممَ قبلكم وقد بقي منه في الأرض شيء يجيء أحيانًا ويذهب أحيانًا، فإذا وقع بأرضٍ فلا تخرجوا منها، وإذا سمعتم به في أرضٍ فلا تأتوها"؛ وفي هذا الحديث تكلم النبي الأمي ﷺ عن وبائية المرض، وأن الوباء عذاب أهلك الله به الأمم من قبل، وأنه يخلد في الأرض، وأنه يجيء أحيانًا ويذهب أحيانًا، كما أشار إلى بيان كيفية الوقاية منه بالحجر الصحي منذ أكثر من ١٤٣٧ سنة!

ومن خلال دراسة الأوبئة وتحليل بياناتها، تبينت هذه الحقائق العلمية:

إن الوباء عذاب للنفس والأهل، فضلاً عن الخسائر الاقتصادية التي تنجم عنه، وأنه يصيب الإنسان ومعه الحيوان أو الطير، وأنه لا يختفي، بل يذهب ويجيء بسبب تحور الميكروبات المسببة للوباء، وبسبب اختزانها في عوائل أخرى؛ كالحشرات، والقوارض، والزواحف، والبرمائيات، والحيوانات البرية.. وأن هذه الأوبئة تظهر في صورة موجات، ولكي يتم الحد من انتشارها، لا بد من الحجر الصحي. وهذه الحقائق العلمية الدقيقة، قد بيّنها النبي محمد ﷺ في الحديث المذكور أعلاه.

وفي الحديث الثاني الذي رواه الإمام مسلم: عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "غطّوا الإناء وأوْكُوا السِّقاءَ؛ فإن في السنَة ليلةً يَنزل فيها وباءٌ لا يمرّ بإناء ليس عليه غطاءٌ، أو سِقاءٍ ليس عليه وِكاءٌ إلى نزل فيه من ذلك الوباء"؛ وفي هذا الحديث بيان ما يستفاد من كلام النبي ﷺ في كيفية انتشار الأوبئة عن طريق الهواء، وأن الوباء يسببه ميكروب يلوث الهواء والماء والغذاء، وأن الوباء له موعد في فصل من فصول السنة ينزل بقدر الله في ليلة مقدَّرة، وكيفية الوقاية منه ومنع انتشاره.

وقد ثبت في القرن العشرين، أن الأوبئة تسببها الميكروبات، وهي تنتشر بين الناس، كما تنتشر في الحيوان أو الطير -في نفس الوقت- عن طريق تلوث الهواء والماء والغذاء.. منها ما ينتشر في فصل الصيف كالكوليرا، والتيفود، ومنها ما ينتشر في فصل الشتاء كالإنفلونزا، وأن منع انتشار الأوبئة هو بمنع أسبابها من خلال منع تلوث الماء والغذاء، ومنع انتشارها في الهواء.

إن هذه الحقائق العلمية الدقيقة قد بينها النبي محمد ﷺ منذ ١٤٣٧ سنة، ولم تكن أدوات علم اكتشاف الميكروبات -ومنها البكتيريا والفيروسات- متوفرة في ذلك الزمان، وفي مكان مهد الرسالة، سواء في مكة المكرمة، أو المدينة المنورة، ولم تكن موجودة حتى في أعظم إمبراطوريتين في تلك الفترة وهما الفرس والروم. فكيف يتأتى لنبيٍّ أميٍّ ليس عنده من هذه العلوم شيء، ولا كانت متواجدة في زمانه، أن يتكلم عن الوباء، ونزوله، وكيفية انتشاره، وطرق الوقاية منه، وأنه ينتشر في فترة محددة من فصول السنَة!؟

إذن الوبائيات تجيء وتستمر في انتشارها لمدة أعوام، ثم تختفي أعوامًا أخرى، ثم تعود وتنتشر لمدة أعوام، ثم تختفي أعوامًا أخرى.. وهذا الأمر يتكرر لمدة قرون طويلة والوباء على نفس الوتيرة.

والوقاية من الوباء لا تتم إلا عن طريق الحجر الصحي، وأول من فرضه هو النبي ﷺ في الوباء؛ حيث أمر الصحابة الكرام بعدم خروجهم من الأرض الموبوءة، وأضاف نقطة أخرى في عدم انتشار المرض والمحافظة على الأصحاء بعدم تعرضه له، فلا يدخلوا الأرض الموبوءة. وكل هذه الأشياء المستفادة من كلام النبي ﷺ هي من مخاض العلوم الحديثة، وكل هذا يدل على صدق رسالته ﷺ. ■

(*) كلية الطب البيطري، جامعة بني سويف / مصر.

hiragate.com

جواد محمد مصباحي*

لا تبتلع اللقمة قبل مضغها وإلا خنقتك، ولا تطلق الكلمة قبل التفكير فيها وإلا قتلتك.

الموازين

صـــورة جـمال الخلق والإبداع

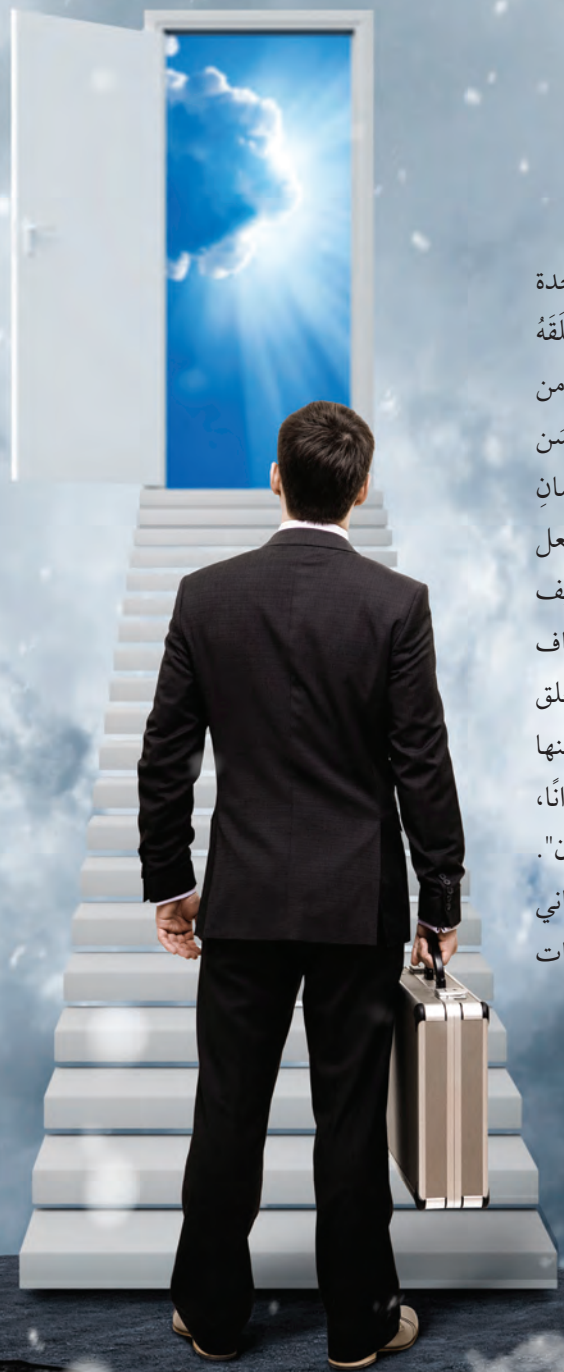

ي

يقول رب العزة ﷻ في سورة السجدة الآية ٧: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾؛ آية يظهر من خلالها تصورًا شموليًا لموضوع الجمال: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾، والدافع لوجوده: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ﴾. والجمال كالخير والحق يفهم من خلال الفعل ومقاصده، ولا يمكن التطرق له إلا من خلال التوصيف لهما. فمن خلال الآية المذكورة يمكن استشفاف ذلك، بحكم أن الحسن والجمال هو في فعل "خلق كل الأشياء". ومن ثم فكل الموجودات -الماضي منها والقادم- هي صورة من صور هذا الجمال، تمهيدًا وإيذانًا، ومن أجل ظهور أرفع الصور منه وهو "خلق الإنسان".

هذه صورة يمكن إسقاط دلالاتها على الفعل الإنساني جملة وتفصيلاً؛ فهذا المخلوق في بحث دائم عن تجليات

الجمال المكنون في صورته وباطنه من خلال الأداء الإبداعي (العمل الفني). ويمكن القول بأن هذا العمل الفني هو صورة أو واحد من المقاصد في الشريعة السمحاء، ووجوب وجوده في حياة هذا الإنسان، ما هو إلا تجلّ وانعكاس للصورة الأولى التي أودعها الخالق في مخلوقاته، والإنسان أرفعها والقادر على إعادة إنتاجها بأوجه عدة.

استشفاف الجمال الركيزة الفكرية الأولى والأخيرة المؤطرة لأداء الفنان، وخاصة في منظومة "الفنون الإسلامية" (بحكم أن الإسلام على رأس الهرم في الجدلية التاريخية للأديان). فالله ﷻ هو الأصل والمنطلق فعلاً وقصدًا، فهو الجمال وخالق الجمال، ثم إن الجلال المتصف به مطلقًا هو أرفع صور الجمال، وإذا كان التشريع في الإسلام من جهة قد حرم تصور الذات الإلهية كصورة مادية: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(الشورى:١١)، فقد أجاز للإنسان التطلع لتجلياتها الجلالية وصورها الجمالية، من خلال مدخلات متعددة يمكن إجمالها في:

• الاتصاف والتأسي بصفاته وسبر غور أسمائه الحسنى، وتقييد النفس بها قولاً وعملا. ويتجلى هذا في المعيش اليومي للإنسان في معاملاته وعباداته.

• مراعاة كون أن ما في الوجود من شيء إلا وقد سخر لهذا الإنسان، ويتمظهر هذا في إلزامية التعايش مع المحيط المعيشي بالتقدير ومراعاة الحاجيات المتبادلة.

• العمل والأداء الإبداعي للترسيخ القطعي للحب الإلهي للجمال، وهو في شقين اثنين:

١- العمل عبادة.

٢- الجمال وسيلة وليست غاية.

فقد ورد في كتاب "بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار" من تأليف الشيخ "عبد الرحمن بن ناصر السعدي"؛ عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر". فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا، ونعله حسنا؟ فقال ﷺ: "إن الله جميل يحب الجمال" (رواه مسلم).

في إطار الفنون الإسلامية، من في الإنسانية يمكن تقييده بما سبق؟ إنه حتميًا الإنسان/الفنان (الممسك بالعملية الإبداعية)، فهو الوحيد الذي يمكنه إظهار الجمال من خلال ما يتمتع به من تراكمات المعرفة بمواد الاشتغال، وأساليب الاشتغال بها. بالإضافة إلى توظيفه لحواسه المتمثلة بالبصر، والشم، والتذوق، واللمس، والسمع.. توظيفًا كاملاً غير منقوص، وتمتعه بقدرة الإحساس بالحركة ومعرفة التوازن. وهذا ما سمح له في أدائه (إبداعاته) بالبعد عن المحاكاة أو محاولاتها، وهي أصلاً شيء مستحيل، يقول تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(لقمان:١١)، والتوجه الشامل شكلاً ومضمونًا، إلى البحث عن كيفية تجلي جلال الذات الإلهية، من خلال الوسيلة الذاتية في العمل الفني وهي "الجمال".

إسقاطات فعل الخلق على فعل الإبداع

من هنا وبعد هذا العبور التأملي الذي رأيته واجبًا في حق مصطلح "الخلق" ما له وما عليه في فاتحة هدف هذه القراءة بين "تجليات فعل الخلق" و"ما يصنعه المخلوق"، أرجع لعملية إسقاط مدخلات الشق الأول على مخرجات الشق الثاني في هذه المنظومة المعرفية، والتي هي -في حد ذاتها- مدخلات العمل الفني (صور الاشتغال بالطين) لإخراجه في صور متعددة يمكن أن نسميها "صنائع الطين".

من آيات الاستقراء السالفة، يمكن تشكيل جملة معرفية مترابطة بين المصطلحات فيما بينها، بحكم تسلسل حالة المادة التي يدل عليها كل مصطلح على حدة في الآيات الكريمة، وبين المصطلح وما يقابله في المعرفة العامة للصانع بدلالاته.. فإجمالاً وبالترتيب الملزم، "الأرض" هي مصطلح واسع في تدقيقه، يعتبره الصانع "الأصل الشامل" وهو بالفعل كذلك. ومن ثم يُدرج مصطلح "التراب" وهو "كلمة عامة" كتعيين لمادة الاشتغال المقصودة في الأداء (الإبداع)، ليُدقق المفهوم بالمسمى "طين" (نخبة النخب من كل التراب).. فيكون

hiragate.com

بذلك قد وضع المتلقي على بداية طريق العبور للعمل الفني، وما سيأتي هي دروب متراكبة توصل للهدف؛ فالطين يصبح "حمأ مسنونًا" (طين وماء) ليتحول إلى "طين لازب" (قابل للتشكيل)، ومن ثم "صلصال كالفخار" (طين محروق)، وهي الصورة النهائية للعملية الإبداعية.

الأرض هي منبع كل الخامات الأساسية للصنائع التي يمارسها المخلوق/الإنسان. أعمل تفكيره وما فطره العزيز القدير فيه من نعمة العقل، فرشد إلى أساليب استخراج المواد، واستنباطها بالخلط والمزاوجة، مستعينًا -في ذلك- بالمراكمة المعرفية والبناء العلمي لتجاربه وخبراته.. ومن مشاهداته وملاحظاته بالإضافة إلى الضرورة الاحتياجية، عرف هذا الإنسان الفرق بين المكونات الأساسية لتركيبة هذه الأرض التي يعيش فوقها.. فهناك صخور وهناك تراب، وكيف يمكنه الاستفادة من كل مكون؛ في البداية صنع أدواته من المكون الأول، ولاحظ قابلية المكون الثاني للتشكيل كذلك بأنماط مختلفة، وما تتيحه له خصائصه الكيميائية من طيف واسع في النمذجة والتصنيع، فكان أن اشتغل على مادة التراب؛ أولاً كمادة يستعين بها في إنشاءاته المعمارية.. ولما تمكن مما يوصله لمعرفة أنواعها معرفة تامة، استقى منها ما أطلق عليه تسمية "الطين" وهي نخبة النخب من أنواع الأتربة الموجودة على الأرض، ليتمكن بها من صناعة أدوات معيشه اليومي، وما يساعده في تدبير تصريفات حياته من أمور المناولة والتخزين وغير ذلك.

الصانع/الفنان، وكما ورد في محكم الكتاب من الآيات السالفة، لا يمكنه الاشتغال بمادة الطين إلا بعد مرورها بمجموعة الحالات الفيزيائية المقررة في الآيات المذكورة. فمن طين مستخرج من الأرض، يعمد الفنان إلى مرحلة خلطه بالماء (الحمإ المسنون) حتى يتمكن من تنظيف مادته من الشوائب العالقة بها، وكذلك لتنتقل من الحالة المتكتلة إلى الحالة الشبه رخوة وذات طواعية، قابلة للتشكيل والنمذجة حسب ما يرتئيه من إخراجات فنية (طين لازب)، وبعد ذلك فمصنوعاته هي "صلصال" و"فخار".

فالله ﷻ هو الأصل والمنطلق فعلاً وقصدًا، فهو الجمال وخالق الجمال، ثم إن الجلال المتصف به مطلقًا هو أرفع صور الجمال، وإذا كان التشريع في الإسلام قد حرم تصور الذات الإلهية كصورة مادية، فقد أجاز للإنسان التطلع لتجلياتها الجلالية وصورها الجمالية، من خلال مدخلات متعددة.

كما وبخلاف هذا التسلسل المرتبط ارتباطًا وثيقًا بين مراحل فعل الخلق التي ذكرها المولى ﷻ، وبين أداء الإبداع لهذا الصانع/الفنان، في التعامل مع المادة الأولية، فهناك كذلك تأسيس لعلاقة وثيقة بين ما تبدعه أياديه وما أوجده الخالق عليه مثمثلاً في الصورة الظاهرية لشكله. فهذا الصانع/الإنسان ومن خلال الآنية الفخارية، هو يعكس هيئته عليها من خلال ما يطلقه من مسميات على تفاصيلها. فمصطلحات "الخزاف" التي يسمي بها تفاصيل الآنية، هي إسقاط لما قد نجده من أسماء في عملية تشريح للجسم الإنساني. فهناك حديث عن الرقبة، الأذن، البطن، الكتف.. إلى آخره من المسميات. وهذا نادرًا ما نجده في الصنائع الأخرى التي تعتمد غير مادة الطين في الاشتغال، مما يجعلنا أمام علاقة وطيدة ووشائج ترابط كلي بين الإنسان/المخلوق، والأرض منبع الخلق، يقول رب العزة: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِنَ الأَرْضِ﴾(هود:٦١).

فمن بدائع سر الكينونة في خلق الخلق، ما أودعه الخالق في هذا المخلوق من أسرار، وما جبله عليه بمعرفة التعامل مع المسخرات، وما علمه من فنون وصنائع، وجعل له الأفضلية على سائر مخلوقاته، وكشف له سبلاً يسعى من خلالها للتعرف على ذاته، وبمعرفتها يرتقي درج العلا في القرب منه ﷻ، حيث يقول عز من قائل: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(فصلت:٥٣). ■

(*) كلية الفنون الإسلامية، جامعة البلقاء التطبيقية، السلط / الأردن.

هشام الراس*

كيف ينظر علماء وأكاديميّو الغرب إلى فكر فتح الله كولن؟

يتفق عدد غير قليل من علماء وأكاديميي الغرب، على أن الأستاذ فتح الله كولن يمثل تجسيدًا مختلفًا وجديدًا لفكر بانورامي تعددي. فالباحث في فكر الأستاذ كولن ونظرته الكونية، يكتشف -أثناء بحثه- أفكارًا عِمادها النظريُّ جسورٌ متينة ومبدئية تسمح بمرور قيم التواصل الكوني، وتجمع بين مختلف الأزمنة.

هناك من ينظر إلى هذا الفكر من الناحية المعرفية فيصنفه في خانة العلوم الإنسانية، ويستنتج من خلال هذا التصنيف أن فكر الأستاذ فتح الله كولن يسعى إلى تأسيس نموذج مجتمعي قوامه التعددية والانفتاح. وهناك من يرى في هذا الفكر مسحة دينية إسلامية لكن بمفهومها الصوفي الرقائقي، ويستنتج من خلال هذه النظرة أن الأستاذ فتح الله كولن يحاول بعث جيل نهضة جديد بواسطة

أفكاره القيميّة ونظرته التسامحية. وهناك من يدفعه شغف البحث في هذا الفكر إلى البحث في مجالات معرفية أخرى يكتشف أن وراءها تاريخًا مُركّبًا استطاع الأستاذ كولن أن يعيشه ويعيش به. فيمكّنه هذا الكشف من التعرف على شخصية الأستاذ كولن المتشكلة من الديني والمعرفي، والصوفي والعلمي. في هذا المقال يتحدث بعض العلماء، والأكاديميون الذين تعرفوا على فكر الأستاذ فتح الله كولن عن جوانبه المتنوعة، كلٌّ من خلال تخصصه.

قيم التسامح والحوار في فكر الأستاذ فتح الله كولن

"إنني أعتبر الأستاذ فتح الله كولن واحدًا من ممثلي الحب والتسامح والحوار الأكثر تأثيرًا في عالمنا اليوم. لقد اكتشف العديد من العلماء في الغرب، وخصوصًا في الولايات المتحدة، أن الأستاذ فتح الله كولن رجل حب وتسامح، وأن توجيهاته تمثل نموذجًا في الحوار بين الأديان والثقافات والحضارات".

هذا ما جاء على لسان الدكتور "هيون ج. كيم" (Heon C. Kim) متخصص في الإسلام المعاصر. وهو بهذا التنويه يسلط الضوء على الحاجة الماسة إلى الحوار في عالم اليوم، كما أنه يشيد بتوجيهات فتح الله كولن في التسامح والمحبة والحوار، توجيهات يعمل محبّو الأستاذ كولن على تفعيلها ممارسة واقعية وحيّة، كما يعملون على نشرها في جميع أنحاء العالم. ويعلق الدكتور "كيم" على الدراسة التي نشرتها مؤخرًا جامعة جورج تاون تحت عنوان "الخمسمائة مسلم الأكثر تأثيرًا في العالم"، بأنه من اللائق والمعقول أن تضع هذه الدراسة الأستاذَ كولن من ضمن الخمسين شخصية مسلمة الأكثر تأثيرًا في العالم، وأن تقدمه كشخصية تؤثر في مجموعات بشرية كبيرة، وتنحو إلى أن تصبح اسمًا عالميًّا.

وأوضح الدكتور "كيم" أن الروحانية الإسلامية المتمثلة في الحب والتسامح والحوار، والتي كان يجسدها الرسول محمد ﷺ، ثم عمل بها أولياء صوفيّون بعده، توجد في صميم فكر الأستاذ فتح الله كولن وأنشطة حركته. وبناء على هذا، يضم الدكتور "كيم" رأيه إلى آراء بعض علماء الغرب الذين يرون في فتح الله

إن الإنسانية عند فتح الله كولن ترفض قطعيًّا اعتبار الآخرين نقيضًا جدليًّا، وبدلاً من ذلك فإنه يؤكد أن التمييز بين الذات والآخر لا يمكنه إلا أن يكون هدفًا للحوار بطريقة تحمي وتُقوّي روحانية الواحد ضد نفسه الأنانية، والتبعية الأهوائية التي تخلق صراعًا مستمرًّا مع الآخرين.

كولن "روميًّا معاصرًا" (نسبة إلى جلال الدين الرومي، واحدٍ من أبرز وأشهر الأولياء الصوفيين في التاريخ الإسلامي). ويرى في توجيهاته في الحوار، بديلاً عن الحركات الجهادية والأصولية، وتلك التي تتبنى نموذج "Paradigm" صراع الحضارات.

إن الحوار يظهر في فكر فتح الله كولن كنتيجة طبيعية لإنسانيته؛ فالأستاذ فتح الله كولن يعرّف الإنسانية بمذهب الحب والرحمة، وهو بذلك يحذر من فهم غير متوازن للإنسانية، كمثل الذي يسيء فهم الجهاد ويرى في غير المسلمين أعداء. إنسانية فتح الله كولن تتعارض مع الفهم الحرفي المتعصب، فهو يهدف إلى إحياء "الحب في البشرية جمعاء"، ويعتبر الإنسانية أغلى شيء في الكون. فهي -كما يرى- مرآة لأسماء الله الحسنى وصفاته العليا. لقد وُهب الناس بالتساوي، القدرة على عكس صفات الله، وعلى تطوير تميّز عظيم، وبالتالي فهذا التساوي واقع بغض النظر عن الدين أو العرق أو الثراء أو المكانة الاجتماعية. وبما أننا خلقنا بفضل حب الله، فالحب يمثل أهم العناصر المكونة للإنسانية.. هذه المفاهيم السامية كالمساواة والحب والرحمة، تمثل جوهر إنسانية فتح الله كولن، وتعمل كميكانِيزْمات أساسية لحركته.

إن أول ما يظهر كشيء عملي في إنسانية فتح الله كولن المعتمدة على الحب، هو الحوار. بالنسبة له يشكل الحوار نشاطًا ترابطيًّا بين شخصين أو أكثر، ولا يمكن لهذا الترابط أن يتم إلا بوضع الإنسان في محور هذا الحوار. وبالتالي يصبح الحوار -في معناه الحقيقي- امتدادًا روحيًّا وواقعيًّا للإنسانية، على أنه لن يتحقق إلا عن طريق الاحترام المتبادل والتسامح

hiragate.com

والحب. لقد أدرك كثير من الناس -في عالمنا المعاصر- الحاجة الماسة للحوار من أجل تعايش سلمي. وقد كان الأستاذ فتح الله كولن يدعو إلى حوار مبني على الحب والتسامح منذ ما يناهز ثلاثة عقود، وكان يؤكد على ذلك بقوله: "يجب علينا أن ننخرط في الحوار مع أيّ كان ودون أي تمييز". وبما أن العديد من الناس لا زال يؤمن بـ"صراع الحضارات"، فإنني أرى أن تعاليمه في الحوار هي في غاية الأهمية اليوم.

إن هذه الرؤية تمثل بديلاً وحلاً لمشاكل البشرية المعاصرة. في السنوات الأخيرة تبنّى عدد كبير من علماء الاجتماع السياسي نظرية "صدام الحضارات" لصمويل هنتنغتون. هذه النظرية تفترض وجود علاقة جوهرية لا توافقية بين الحضارة الغربية والحضارات غير الغربية، وتتوقع صراعات وحروبًا حضارية حتمية. أثارت هذه الرؤية مناقشات علمية هائلة، وخلّفت أعمالاً نقدية كثيرة. وقد سبق وشاركتُ في هذا النقاش من خلال كتابة عدةِ ورقاتٍ وتقديم بعضها في مؤتمرات أكاديمية في الولايات المتحدة، وقد تتبعتُ في هذه الورقات الأصول الفكرية لنظرية هنتنغتون، تفترض قناعته باللاتوافق الحضاري وخصوصًا بالصراعات الحضارية، توتّرًا جدليًا أو معارضة لعلاقة عكسية بين "الذات والآخرين"، والتي تتمخض من عند فريدريك هيجل وبعده المفهوم الهيجيلي: "الآخرين الأدنى فكريًا"، ومن عند كارْلُ ماركس وبعده الفكرة الماركسية: "الآخرين الغرباء سياسيًا واقتصاديًا"، يضيف هنتنغتون إلى هؤلاء مفهوم اللاتوافق الديني بين الإسلام والمسيحية. وبالرغم من أنها تنطوي على محاور مختلفة، فوجهات نظر هيجل، وماركس، وهنتنغتون، متفقة في تعريفها للإنسانية كعلاقة تضاد ونزاع بين الذات والآخرين، والتي قد يطلق عليها "النهج الجدلي للإنسانية".

وعلى عكس النهج الجدلي للإنسانية، فاستيعاب فتح الله كولن لمفهومي البشرية والإنسانية، يفترض مساواة وتوافقًا بين الذات والآخرين تقود إلى المحبة والتسامح والحوار. إن الإنسانية عند فتح الله كولن ترفض قطعيًا اعتبار الآخرين نقيضًا جدليًا، وبدلاً من ذلك فإنه يؤكد أن التمييز بين الذات والآخر، لا يمكنه إلا أن يكون هدفًا للحوار بطريقة تحمي وتُقوّي روحانية الواحد ضد نفسه الأنانية والتبعية الأهوائية، التي تخلق صراعًا مستمرًا مع الآخرين. إنني أصطلح على هذه الإنسانية بـ"الإنسانية التحاورية"، وأعرّفها كأنظمة تفكير وطريقة حياة تنظر إلى البشرية كوحدة مكوّنة من "الذات والآخرين" وكموضوع للمحبة والحوار. وبالتالي فإنني أضعها بديلاً للنهج الجدلي للإنسانية، ولذلك أرى أنه ينبغي علينا اعتبار وتقدير تعاليم فتح الله كولن حول الإنسانية.

ميزان القيم في فكر كولن: التوفيق بين الماضي والحداثة

"لم يسبق للأستاذ فتح الله كولن أن أقصى الماضي، ولم يفعل ذلك مع الحداثة. وخلافًا لتَسْيِيس الإسلام أو للإسلام السياسي تتبنى حركة كولن وجهة نظر لا تتخذ موقفًا سلبيًّا من المجتمع الغربي أو الحداثة. كما أن حركة كولن، لم تكن يومًا على خلاف مع مختلف الحكومات المنتخَبة في تركيا، بل إنها ساهمت في إيجاد حلول لمشاكل وطنية معقدة بواسطة بسط شبكات اجتماعية واسعة النطاق، واستخدام وسائل سلمية لتوليد إجابات". هذا ما اجتمع عليه المشاركون في مؤتمر دولي نظمته أكاديمية الحوار بـ"هولندا". وأضاف بعضهم أن "هذا المنهج -والذي يبدأ أولاً بالتغيير في داخل الفرد ثم يهدف إلى نشر التغيير في المجتمع، هو على عكس النظام المسيطر الذي يطمح نوعًا ما إلى ثورة "من أعلى إلى أسفل"- منهجُ حركةٍ بدأت تتطور من داخل المجتمع نفسه، وتشارك في بعض الأعمال الهامة جدًّا في تناغم مع الأخلاقيات الاجتماعية، والقانون، والعقود الاجتماعية، والقانون الدولي".

وتطرّق البروفسور "توماس ميتشل" من جامعة جورج تاون، إلى الجوانب الدينية لحركة كولن، مشيرًا إلى ميل كولن المرجعي والخاص إلى مولانا جلال الدين الرومي وإلى تأثير التصوف عليه، مع تركيزه على الخدمة الإلهية وعلى الصدق. كما أوضح "ميتشل" أنه لا يهمّ مدى كبُر أو صغُر عمل ما بقدر ما يهمّ مدى الصدق المحيط بالقليل من ذلك العمل، وأضاف أنه: "إذا اعتبرنا العمل الصالح جسدًا، فقوام روحه

hiragate.com

الصدقُ". وبهذا ربط "ميتشل" نجاح الحركة، بالصدق الذي يظاهرها من أبنائها. وأكد على الجانب الحيوي الذي يمثله الصدق في جميع الأفعال بغضّ النظر عن حجمها، وبيّن أنه متى وُجِد الصدق حظيَ الفعل بقيمته وأهميته. وفي إشارة إلى أهمية فعل الخدمة داخل حركة المتطوعين الواسعة هذه، قال ميتشل: "إن مدرس الفيزياء في قرغيزستان، والتاجر المنخرط في أعمال الخير في إزمير، كِلاهما في عبادة. ففتح الله كولن يبقي مفهوم العبادة واسعًا، ويؤكد أن خدمة الناس من خدمة الصالح العام، ويربط إنقاذ الذات بإنقاذ الآخرين".

فتح الله كولن يقدم نموذجًا لجميع الديانات الأخرى

صرّح قسّ أمريكي بارز، بأن جميع الديانات في حاجة إلى مثل التزام فتح الله كولن الباحثِ الإسلامي التركي، والذي يركّز في تعاليمه على حوار الأديان، تعاليم يُثني عليها عدد كبير من المختصين على نطاق دولي واسع.

وقال "ديرك فيكا" المدير التنفيذي لمجلس برلمان أديان العالم الواقع بـ"شيكاغو" -واحدة من المنظمات غير الحكومية الدولية التي تهدف إلى غرس بذور تفاهم أفضل بين المجتمعات الدينية والروحية عبر العالم، من خلال تسليط الضوء على أوجه التشابه مع تثمين الاختلافات بينهم- قال: "إنني لا أعتبر الأستاذ فتح الله كولن بطلاً فقط لِما أسداه للمجتمعات المسلمة، بل إنه "يقدّم" نموذجًا لجميع الديانات الأخرى".

وأضاف مشيدًا بلامركزية الحركة وبلا هرمية بنيتها وبطبيعتها التطوعية في قوله: "إن حركة كولن مختلفة كونها جزءًا من الناس، في حين تعمل مؤسساتها على تحقيق أهداف وظيفية وعملية بدلاً من تكوين بنية سلطوية أو حاكمية"، وأوضح قائلاً: "أعتقد أن الناس يجب أن يشعروا بأنهم في خدمة شيء أكبر بكثير (من المؤسسات)". وبالنسبة للقسّ "فيكا" فحركة فتح الله كولن بخصائصها المذكورة آنفًا، هي أيضًا نموذج لمجلس برلمان أديان العالم.

مفهوم البعث الحضاري الجديد في فكر كولن

جاء في كتاب الدكتورة جيل كارول "محاورات حضارية: حوارات نصية بين فتح الله كولن وفلاسفة

"أعتبر الأستاذ فتح الله كولن واحدًا من ممثلي الحب والتسامح والحوار الأكثر تأثيرًا في عالمنا اليوم. لقد اكتشف العديد من العلماء في الغرب أن الأستاذ فتح الله كولن رجل حب وتسامح، وأن توجيهاته تمثل نموذجًا في الحوار بين الأديان والثقافات والحضارات".
(د. هيون ج. كيم)

الفكر الإنساني"؛ إنك "لن تجدَ في فكر كولن فقط حوارًا بين كولن وأفلاطون أو كولن وكونفوشيوس، ذلك أن فتح الله كولن مثقّف استطاع أن يعزو هذا الحوار إلى السياق الإسلامي. فهناك بُعد مختلف عند كولن يجذب، كلمات كولن تتحول إلى فعل في العالم". وترى الدكتورة "كارول" كتابَها كاستمرار للحوار الذي بدأه كولن نفسه، وفي حين توضح أنها تؤسس لحوار بين ملحد مثل "سارتر" ومعتقد مثل كولن على أساس من الإحساس بالمسؤولية، تقول كارول: "إن هذا يبقى جهدًا يستند إلى نص يهدف إلى إقامة حوار سيأخذ صيرورته في هذا العالم.

إن نقطة البداية هي حوار الأديان، وهذا ما شكل المنظار -إذا صح التعبير- أو الإطار الذي من خلاله نظرت إلى الحركة. لقد كانت مسألة حوار الأديان أول ما جذبني نحو الحركة، ولا زالت هذه المسألة تشكل السياق الذي أُقَيِّم من خلاله الحركة وأختبرها. لقد أثار اهتمامي أن أرى كيف يتعامل هؤلاء المسلمون الأتراك، مع أناس من مِلَل أخرى. وقد بدا واضحًا لي أن هؤلاء مسلمون متدينون ومتيقظون. كان سؤالي هو عن "كيف يتفاعل هؤلاء مع أناس من مِلَل أخرى؟" ولذلك كنت أتتبعهم وألاحظ مدى تطابق نشاطهم وأفعالهم مع أقوالهم، وقد حققوا ذلك بالفعل.

لقد درّستُ في الجامعة لمدة عشرين عامًا دروسًا كانت في عمومها تاريخية، فدرّست مثلاً تاريخ الفكر العقلاني. ونحن نسمي هذه الأقسام في أمريكا بـ"من أفلاطون إلى حلف الناتو". إنك بهذا تنمي قدرات لكي ترى مواضيع عامة عبر القرون وعبر الثقافات من الصين

إلى إفريقيا. عندما بدأتُ في قراءة أفكار السيد كولن، بحثتُ في الحال عن روابط، بحثت عن نقاط الترابط بين أفكاره المنطلقة من سياق إسلامي تركي، وبين أفكار كونفوشيوس وسارتر حول بعض القضايا. إنه بسبب دُرْبتي وخبرتي في التدريس فإنني أبحث الأشياء بهذه الكيفية، إنني أرى الأشياء في عمومها، ولذلك أرى الغابة بسهولة، على عكس متخصصين آخرين يختارون رؤية الأشجار والأوراق والتفاصيل الدقيقة.

إنه لشيء مثير للغاية! إنك لا تجد كولن يفكر في أفكار أفلاطون فقط، بل يضعها في سياقه الإسلامي، كما أنك لا تجده يكتفي فقط بترديد أقوال كنفوشيوس، بل يرددها كما لو كانت أقواله هو. هناك هذا الجانب، لكن هناك كذلك هذه الجماعة النشيطة التي تبث الحياة والفعل في هذه الأفكار والأقوال. أن تكون فيلسوفًا، فهذا شيء، وأن تكون ناشطًا، فهذا شيء آخر، لكن الأغرب من هذا كله، هو أن يجتمع الشيئان في رجل واحد.

إن الحوار الذي نجده في تجربة فتح الله كولن أقرب إلى ما فعله أرسطو منه إلى ما فعله سقراط أو أفلاطون. فأرسطو في مدرسته، كان يشجع تلامذته على الحوار مع العالم والانخراط ضمنه، للخروج من ثقافة الرخاء وبالتالي معرفة الآخر وتثقيف أنفسهم تبعًا لذلك. وأنا أرى أن هذا أقرب في جوهره إلى ما يتحدث عنه الأستاذ كولن في تجربته. وأظن أن مصطلح الحوار مصطلح غني جدًّا وولاّد بالكيفية التي يتحدث بها كولن عنه. كما أن التركيز على التربية والتعليم هو -في حد ذاته- جزء من هذا الحوار. والتعليم -في تعريفه- يعني أنك تتحاور مع أفكار لم يسبق لك أن سمعتها قبلُ. إنك تلتزم بتصورات ومفاهيم ونظريات ومنظورات غريبة عنك وتنفتح عليها، إنك توسع نفسك لتلقيها والتعلم منها، وبالتالي تُعرّف التربية والتعليم بالحوار. إن التركيز على المدارس ومزج القيم الروحية بالعلم والمعرفة، هو نوع من الحوار يتجاوز ما يعتقده عادة كثير من الناس". ■

(*) كاتب وباحث / المغرب.

الجذور والثمرة

من ذاك الماضي الأغرّ قَدمتَ،
ومن قلب شموسه انبثَقْتَ..
تُواصل السيرَ، وتحثُّ الخُطى،
نحو مستقبل مشرق زاهر،
رافقتك السلامة يا صغيري...

***

أ.د. ناصر أحمد سنه*

التراحم بين الحيوانات

يُشير الدكتور "صبري القباني" في كتابه "غرائب في مملكة الحيوان"، إلى مشاهدات "جوزيف ديلمون" (صائد وحوش شهير) للقرد "ديك" من نوع "الأوران-أوتان"؛ الذي لم يكتف بالسماح للطبيب بمعالجة جرحه، بل يساعده عبر مد يده فيفتح له الجرح. وكان "ديك" يهتم برعاية الحيوانات المُعدة للتصدير، ويتفقدهم -وكأنه طبيب- إذا ما "اشتكوا" من علة، معتمدًا في ذلك على حاسة الشم، إذ اكتشف قردًا هزيلاً فصحبه -كأم حنون- ليوفر له الدفء والطعام. وبفحص الطبيب البيطري لهذا القرد تبين أنه مصاب بالسل، فأعطاه علاجًا.. فما كان من "ديك" إلا أن انتهز فرصة سانحة وأحضر الدواء، ثم أعطاه دفعة واحدة للقرد المريض، ولكن أدى ذلك إلى موت الحيوان المسكين.

ولما حدث هراش بين حيوانات القفص، وجرح عدد منهم، كان "ديك" يداويهم معطيًا "الأولوية" لمن هو مثخن أكثر بالجراح.. يُعتبر ما يفعله "ديك" نوعًا من التسلية أو التقليد الأعمى كعادة القردة الذكية. لكن تبين أن له طريقته للمداوة؛ فكثيرًا ما يغسل الجرح بلسانه أو بأوراق الجوز الطرية، كما يستعمل ضمادات من الطين والأوراق. هذا وقد شوهد أنه يضع كتلة من ضماد الغضار على جانب من فكه، حيث لوحظ أن خراجًا سنيًّا يؤلمه، فقام بمعالجته. وبعد أيام اقتلع "ديك" الضرس ومضى يحمله فرحًا مسرورًا.

الطيور الجرّاحة

لاحظ البيولولجي والصائد الفرنسي "فيكتور ماتيو"، أن بعض الطيور تعمد إذا ما أصيبت بجرح نازف، لمعالجة نفسها بتغطيته بطبقة من الغضار. وإذا كان العظم مكسورًا فتلف حوله ضمادًا متقَنًا. ولاحظ "فيكتور" جرحًا قديمًا في جسم طائر اصطاده، فوجده مغطى بطلاء غضاري مع بعض الريش الناعم المنتزع من جسمه، وقد ثُبِّت على الجسم بالدماء المتخثرة. وشاهد ضمادات على طيور عدة مشدودة بشكل فني حول عظم سبق أن أصيب بكسر أو جرح قديم. كما وجد طائرًا جريحًا ميتًا وقائمتاه المكسورتان مضمدتين بدقة، غير أن المسكين لم يستطع التخلص من بعض الريش الذي سد مجرى تنفسه، فمات مختنقًا. وقد شوهد طائر "دجاج البر" أنه وضع ساقه في غضار ممزوج بالعشب.

في عالم الأسماك

تسبح الأسماك الطائرة لعائلة Exocoetidae بسرعة كبيرة تتراوح بين ٢٥-٣٢ كم/ساعة قرب سطح الماء، ثم تضرب السطح وتنشر زعانفها/أجنحتها، وتقفز إلى ارتفاع يصل نحو ١٠ أمتار فوق سطح الماء، وإلى مسافات تصل إلى ٤٠٠ متر. وإن سمكة البلطة الطيارة، والفراشة أو فك الأزميل، والكراسين ذا الجسم العميق أمثلة شاهدة على ذلك. وقد يوجد في البحر الكاريبي أسماك ذات حراشيف براقة، تتقافز وتعرض نفسها للجوارح من الطيور. لكن لوحظ أن في بعضها مرضًا جلديًّا يتسبب في سقوط حراشيفها. ولعل الغاية من قفزها، تعريض الحرافيش المصابة، لأشعة الشمس. تأكد هذا الافتراض بالتجربة؛ فجمعت أسماك ووزعت على وعائين، غطي أحدهما بشبكة على مستوى سطح الماء، وبقي الآخر مكشوفًا. وبعد أيام ظهر كثافة البقع المرضية على جسم الأسماك "المحبوسة" مقارنة بالتي سُمح لها بالقفز خارج الماء.

هذا ولوحظ أن جِراح بعض الأسماك تلتئم سريعًا، مقارنة بجروح الإنسان. ليس بسبب ملوحة المياه فقط، لكن بتناوب التصاق أسماك سليمة عليها. وقد تم إجراء تجربة في ظروف تبدو طبيعية، وإحداث جروح في الأسماك، لكن امتنعت زميلاتها عن معالجتها. كما تم البحث عن طبيعة المواد التي تُفرز في بيئتها الطبيعية، فتبين أن بعضها مختص بتخثير الدم، وبعضها يعين على انقباض الجلد والعضلات، وبعضها مادة لاصقة. وبالتالي عندما وضعت هذه المواد على جرح إنسان، التأم في ثلث الوقت المفترض (ثلاثة أيام فقط من نحو عشرة أيام). وكأن هذه المواد المتنوعة "تتعاون فيما بينها، وتنسق وظائفها، وصولاً لهدف مقصود، ألا وهي سرعة التئام الجروح.

في عالم الحشرات

يعيش "جراد الصحراء" في سورية والشرق الأدنى، ويتغذى على نبات Calotrpus procers المُحتوية أوراقه على مادتين سامّتين يريدهما الجراد -دون سائر سميات النبات- للدفاع عن نفسه ضد أعدائه. ويترك منهما مخزونًا بجانب بيضه حتى تفقس، فتجد الصغار "أسلحة" تدافع بها عن نفسها. كما لوحظ أن إناث بعض الفراشات الملكية، تقوم بوضع بيضها على عشب بري مضاد للطفيليات -يسمى الصقلاب- لتوفير العلاج الفوري لصغارها. أما نحل العسل فيطبب نفسه بحماية مسكنه، ويبطن أعشاشه بالراتنج (مادة صمغية

hiragate.com

تعمل كمضاد للميكروبات) يجمعها من النباتات. وبمزج الراتنج مع شمع النحل، ينتج "العكبر" أو "الدنج" دواء تقليديًّا. وبعد وضع "الأطلس الوراثي" للنحل، أدرك العلماء أن من وسائل مناعته "اعتماده على هذا الراتنج". بينما تستخدم ذبابة الفاكهة "دروسوفيليا -السوداء البطن- الكحول، لحماية نفسها من الدبابير الطفيلية؛ إذ تقوم الأخيرة بوضع بيضها على يرقات الذبابة، لتقوم الدبابير الصغيرة المفقوسة بالتهامها. لكن تلك اليرقات التي تستهلك كميات كبيرة من الفاكهة المخمرة، لا تتأثر، وإذا حصل ذلك، فإن الدبابير الصغيرة المتطورة من اليرقات تموت.

البرّية صيدلية طبيعية

تعرف الحيوانات -الأليفة منها والبرّية- الصفات المطهرة للأعشاب، وتستثمر البرية كـ"صيدلية طبيعية". ويلاحظ تحول لواحم -بإرادتها- إلى آكلة عشب لتدواي نفسها وصغارها، وتعالج أيضًا غيرها. هذا وحين أزيل التوّرم من فوق أضلاع قرد من نوع "جيبون"، تبين أنه كتلة من أوراق ممضوغة من شجرة "بوزفيلاسيرتا"، حيث تنبت هذه الشجرة في موطن هذه القردة، لكنها لا تتناولها لمرارتها، ولكن يستخدم المواطنون أوراقها في أغراض علاجية -كما استخدمها القرد- ليساعد على إيقاف النزف، وكضمادٍ ليساعد على التئام الجرح. وفي حديقة حيوان "أدنبره" بـ"إسكوتلندا"، التقط شريط فيديو لقردة تدْعك وبرها بالبصل وحامض الليمون كنوع من المعقمات، ولإبعاد الحشرات مسح بالزيوت العطرية. كما تستعمل قردة الشمبانزي مجموعة من النباتات

هذا وقد يوجد في البحار أسماك عديمة الفكوك كسمك الجلكا وأسماك الجريث، تعمل في هيئة النظافة العامة؛ حيث تمارس عملية قشط، وكنس، وشفط الأسماك، والعوالق الميتة، والديدان، والقشريات.. فتزيل المخلفات العضوية,

الطبية، فتبتلع -عفويًّا- من أوراق نباتات من شأنها تنظيف الطفيليات من أمعائها ومعدتها. وقد يكون هذا المسح أيضًا، لأغراض تحديد مناطق النفوذ، وللدفاع عن النفس. فالسناجب الأرضية تقوم بعلك جلود الأفاعي ذات الأجراس قبل لحس صوفها، وهي حيلة تلجأ لها لردع هذه الأفاعي عن افتراسها.

وبالتالي تعرف الحيوانات فائدة حمامات الطين؛ فعندما يصاب أفراد من قطعان البقر الوحشي الأفريقي بالجرب، يشاهد انطلاق القطيع لمستنقع لتغمر نفسها بالطين الذي يعمل على طرد الطفيليات التي تنغل في القروح والجروح. ومع تأثير أشعة الشمس يتم تجفيف الإصابات، وبتكرار التسربل بالوحل يربو على شهر، تعود العافية لجلودها. لقد استفاد الحيوان من محطات الاستشفاء المعدنية (كحمامات الطين، وعيون المياه المعدنية) قبل معرفة الإنسان بخصائصها العلاجية، وكأنها تعمل "كشافات" متقدمة لمحطات علاجات طبيعية ونادرة.

التكافل الطبي

كثيرة هي الشواهد على تبادل المنفعة، والتكافل الطبي بين أجناس من الكائنات الحية. وفي هذا المجال يُشار إلى التكافل التنظيفي والغذائي والحمائي.. حيث توجد حيوانات وطيور وأسماك تعمل على تنظيف/التغذية على الحشرات والطفيليات، وبقايا غذاء الشريك الآخر. فمن هذه الأمثلة ما يحدث بين التمساح وصديقه طائر القطقاط الذي يلازمه دومًا، هابطاً بين فكيه لينظف أسنانه كأفضل ما يكون التنظيف والعناية بالأسنان. ويمكث التمساح هادئًا مطمئنًّا، حريصًا على ألاّ يطبق فكيه على صديقه الصغير. والجدير بالذكر أن هذا

hiragate.com

الصديق الصغير يرفرف جناحيه منذرًا إذا ما رأى عدوًّا، أو شعر بخطر، فينساب التمساح إلى الماء هاربًا. كذلك ما يحدث من منفعة متبادلة بين بعض الطيور والثدييات الكبيرة -مثل الجاموس ووحيد القرن- التي تخلصها من كثير من الحشرات والطفيليات، وكذلك مخاطر الأعداء المفترسة في آن واحد.

وفي جنوب المحيط الهادي تكثر أسماك صغيرة (طولها نحو عشرة سنتيميرات) امتهنت عملية الطبابة. ويوجد من يمارس تلك الوظيفة عبر بحار العالم، نحو ٣٣ نوعًا من الأسماك.. وهي تفتتح بين الصخور عيادات -ثابتة أو متنقلة، أو تقوم بزيارات منزلية- تؤمها شتى أنواع الأسماك، طلبًا للشفاء من الطفيليات والإصابات. فالسمكة الطبيبة تنال ما يكفيها من غذاء مجاني جراء قيامها بالتنظيف، كما تتمتع بالحماية الكافية والحصانة اللازمة ضد هجوم الأسماك الكبيرة عليها. وقد شوهدت هذه الأسماك وهي تنظف -في أمان وهدوء- أسماكًا خطرة مفترسة ومنها "الحنكليس"، وسمكة العقرب السامة.. وخلال ست ساعات من الملاحظة، تم إحصاء نحو ٣٠٠ سمكة تؤم العيادة ثم تغادرها نظيفة من الطفيليات العالقة بها. وهو عدد كبير يعكس مدى المهمة الملقاة على عاتق هذه الأسماك في حفظ أنواع عديدة من الأمراض والنفوق والانقراض.

وهناك سمكة المهرج التي يصل طولها إلى ٦-١٢ سم حسب النوع، وتتواجد في البحر الأحمر والمحيط الهندي والهادي، وفي صخور حاجز أستراليا العظيم. إنها تعيش على شكل أزواج داخل شقائق النعمان، وتتبعها مجموعة صغيرة من الأسماك تتميز بألوانها الزاهية وتسمى بأسماك "الآنسة"، كما تجذب إلى مجساتها أسماكًا أخرى، وتطرد عنه أسماك الفراشة التي تفترس الشقائق. وأما العلاقة بين الأسماك المهرجة وشقائق البحر ليست علاقة حماية فقط، بل علاقة طعام ونظافة أيضًا؛ إذ تقوم أسماك المهرج برحلات -غير بعيدة- إلى خارج مجسات الشقائق، فتسرع سمكة المهرج إلى مخبئها عندما تقوم سمكة كبيرة بمطاردتها. فتصيبها الشقيقة بلسعات قاتلة. وبعد فراغ الشقيقة من أكلها، تتغذى سمكة المهرج على الفضلات والبقايا وتنظف المكان.

هيئات للنظافة العامة

لعلها الغريزة هي التي تمنع الحيوانات -ولا سيما الضاري- من أن تأكل فوق حاجتها، فضلاً عن أن تأكل ما لا يناسبها. لكن الضباع تشذ بشراهتها، فتأكل حتى تتقيا، ثم تعود لتأكل من جديد. ولعلها بذلك تُعد من أهم منظفات البيئة الطبيعية، حيث تزيل الجيف وما يبقي من الحيوانات التي افترست.

هذا وقد يوجد في البحار أسماك عديمة الفكوك كسمك الجلكا وأسماك الجريث، تعمل في هيئة النظافة العامة؛ حيث تمارس عملية قشط، وكنس، وشفط الأسماك، والعوالق الميتة، والديدان، والقشريات.. فتزيل المخلفات العضوية، ومن تعمل على نظافة البيئة، وإزالة مسببات الأمرض التي تتواجد فيها.

التراحم ورعاية الحيوانات لنفسها فطرة فطر الله الكائنات عليها، حتى عند من يبدو أنه أكثر شراسة وفتكًا. فمع شراستها لا تخلو مما جُبلت عليه من الرحمة. فالأسود الضواري، والوحوش الكواسر، والطيور اللواحم، والأفاعي والتماسيح الشرسة.. تتساقط كل ضراوتها أمام عاطفة الأمومة والأبوة. قال رسول الله ﷺ: "إن لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والطير والبهائم والهوام، وفيها يتعاطفون وبها يتراحمون، وأخر تسعًا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة" (رواه مسلم). ■

(*) كاتب وأكاديمي / مصر.

hiragate.com

زبيدة هرماس*

دردشة تحت الشمس

جلس "إلياس" في صحن الحرم المكي وقال لـ"جواد" الذي تعرّف عليه في الفندق:

- الشمس في بلدكم لا تغيب، كل شيء يشع كالذهب، حتى الأشجار والأحجار تستمتع بهذا الضياء الوافر.

قال جواد:

- هذا من نعم الله على هذه البلاد، أما سمعت أنهم اكتشفوا الطاقة في تلك الأشعة الممتدة على آلاف الأميال مخترقة طبقات هوائية عديدة؟ من هذا الضياء سيزداد الإنسان سعادة وستزيد الشمس حياتنا رونقًا وجمالاً.

رد إلياس القادم لأداء فريضة الحج من تركيا:

- قد يخفف هذا الاكتشاف من التلوث البيئي الذي تحدثه أدخنة المحروقات البترولية.

ابتسم جواد وهو يعدل غطاء قطنيًا خفيفًا فوق رأسه وقال:

- لقد برع أجدادنا الشعراء في التغني بالقمر، لأنهم يهتدون به في الظلمات، ويقطعون الأميال في ظلام مضيء ضوءًا وسطًا بين الظلمة والضياء، وهذا من آيات الله العظيمة.

قال إلياس ساخرًا:

- حقًّا يا جواد، أعتقد أن الشعراء اليوم سيتغنون بالشمس المضيئة شعرًا ونثرًا.

أردف جواد ضاحكًا:

- ههه، أعتقد أنهم سيسوقون سياراتهم المزودة بالطاقة الشمسية، ويحملون الحواسيب المعبأة بالطاقة الشمسية أيضًا، وسيستعملون في بيوتهم كل الأجهزة

المتاحة ببطاريات تمتلئ حرارة.. هه، سيتملك الواحد منهم ثروة شمسية في بنوك مليئة بالأشعة.. ههه.

قال إلياس:

– يا إلهي، لست أدري ما الذي جعلني أفكر الآن في قوم سبأ الذين عبدوا الشمس من دون الله هيبة لضيائها، ماذا لو رأوا ما اكتشفته التكنولوجيا العلمية اليوم، الأشعة الذهبية في الصناعة لأجل راحة الإنسان والشمس سبيلاً لعبادة خالقها الذي أودع فيها تلك المنافع، وأمسكها في هذا الفضاء الشاسع، ووهبنا ضياءها وهي طائعة؟!

رد جواد واثقًا:

– لقد كان هدهد سليمان عليه السلام حكيمًا عندما أنكر على قوم بلقيس عبادتهم للشمس من دون الله.. فقد طاف في السماء العالية، وأدرك أن عقولهم لم تستقبل تلك الأشعة النيرة من أجل الإبصار والتأمل، كيف تغذي الأرض وتنضج الثمار وتنشر نورها عليهم، دون أن يوجهوا لأنفسهم سؤالاً واحدًا: أيعقل أن تنفذ تلك الأوامر من تلقاء نفسها؟ أين تلقت التدريبات لتدرك حاجة الإنسان الدقيقة والملحة إلى ضيائها.. هذا الإنسان الذي يبعد عنها آلاف الأميال ولا يكاد يظهر أمام أصغر جزء منها؟ بل إن خللاً بسيطًا في حركتها، قد يجعله ذائبًا كالشمعة المحترقة.. هل درست خلقه بهذه الدقة وتكيفت معها لحد هذا الإمتاع البهي الذي شملته أشعتها به؟

قال إلياس بصوت الواثق:

– لذلك فقد تحدى الهدهد عذاب سليمان عليه السلام وأخبره أنه أحاط بما لم يحط به هو، وهو النبي الذي سخر له الله تعالى ما شاء من مخلوقاته.. كان غاضبًا جدًّا وهو يرى مخلوقًا يعبد مخلوقًا آخر خلق من أجل خدمته وإنارته وإعانته على الاستخلاف.. لم يحتمل، وقرر أن يرفع تقريرًا عاجلاً لنبي الله الذي ينشر التوحيد الخالص.

ههه.. يقولون إنه أول صحفي أنجز تقريرًا في التاريخ. لقد كان أمينًا وصادق الغيرة، إلى درجة أنه كان سببًا في هداية قوم بلقيس بأكمله؛ حيث استعاد العقل البشري وعيه وتدبر في قول سليمان، وأدرك أن عبادة الموجد أولى من عبادة الموجودات.

لقد عادت صورة الشمس في حركتها الدؤوبة خلال اليوم وخلال الفصول إلى مخيالهم الأواب، ونحتت لبلقيس صورة المرأة الحكيمة التي نزلت عند دعوة سليمان، وعبدت إلهه الذي خلق كل شيء، مقتنعة أن الشمس لم تهبهم الضياء من تلقاء نفسها، وأنها مأمورة كما هو القمر والبحر والنجوم وغيرهم من المخلوقات.

ما أستغرب له –يا صديقي– هو أن هذا الهدهد مجرد طائر صغير، وأتى الله على يديه بالقوم كلهم مؤمنين.. كيف أخذته الغيرة وهو يرى ذلك المنكر المشين، وتحرك بطريقته لأجل إزالته؟ كيف حزن وقاوم المنكر بتلك الطريقة المؤدبة وهو غير مكلف ولا مسؤول؟

حقًّا إنه منكر عظيم أن ترى بشرًا كرّمه الله بالعقل البارع المبدع، يضع مؤهلاته تحت إشارة صنم مهما علا وكبر، يسجد لشمس أو لقمر أو ما شابه.

لقد امتد بنا الوقت مطولاً يا عزيزي، وغرقنا في هذه الدردشة، ولم نعلم أن الشمس قد ملأت السماء نورًا، فالساعة تشير إلى الحادية عشرة زوالاً.

– هكذا هي بلاد الحرم، يمتد الضياء طيلة اليوم، ويتيح لك أن تنجز الكثير من الأعمال وأنت تعانق أشعتها، خصوصًا حين تخترق غرفة نومك، وتتسلل من النوافذ ومن بين الثقوب إلى سائر أرجاء البيت، وتنتصب في السماء فوق الكعبة والناس صفًّا صفًّا من كل جنس ولون، كأنهم بنيان مرصوص يسجدون لخالقها ويلهجون بحمده في جو بديع.

– هذا ما أبهرني! ليت الهدهد يعود في زيارة تفقدية هذه المرة، ليرى العقل البشري السوي ساجدًا، ونور الشمس في عقله وقلبه ممتزجًا بنور الله الذي لا يخبو ليعود ويخبر سليمان عليه السلام أن الله قد أذن للتوحيد أن يسري في الأرض سريانًا، ويصل الحق إلى كل شيء غربت عليه شمس أو أشرقت.

استغرقا قليلاً في الصمت والتدبر، إلى أن سمعا مؤذن أذان الظهر مكبرًا ليتوجه الناس صفًّا واحدًا تحت ضياء الشمس الوارف. ■

(*) كاتبة وأديبة مغربية.

hiragate.com

د. لطف الله خوجه*

كن ليِّن الحديث تَفتَح لك القلوبُ أبوابَها، وكن دافئ المشاعر تُنزِل النفوسُ أفكارَك في أحسن منازلها، وأخلص في عملك يكن لك في الأرواح تأثير لا يفنى.

الموازين

شفاء القلوب

كان الفضيل بن عياض يعشق جارية، فواعدته ذات ليل، فبينما هو يرتقي جدارًا، إذ سمع قارئًا يقرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾(الحديد:١٦)، فرجع القهقرى وهو يقول: "بلى والله قد آن".. فآواه المبيت إلى خربة فيها جماعة من الناس، وبعضهم يقول لبعض: "إن فضيلاً يقطع الطريق"، فقال: "أوّاه، أراني بالليل أسعى في معاصي الله وقوم من المسلمين يخافونني! اللهم إني قد تبت إليك، وجعلت توبتي إليك جوار بيتك الحرام"، فتاب وتعبّد وتعلّم حتى صار يلقب بـ"عابد الحرمين".

وقال ابن المبارك: "كنت يومًا مع إخواني في بستان لنا، وذلك حين حملت الثمار من ألوان الفواكه، فأكلنا وشربنا حتى الليل فنمنا، وكنت مولعًا بالضرب على العود والطنبور، فقمت في بعض الليل فضربت على العود، والعود بيدي لا يجيبني إلى ما أريد، وإذا أسمع: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، قلت: "بلى والله" وكسرت العود، وصرفت مَن كان عندي، فكان هذا أول زهدي وتشميري. فصار عبد الله بعد ذلك من العلماء العابدين المجاهدين.

قال ابن مسعود: "ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين" (رواه مسلم). وقال ابن عباس: "إن الله تعالى استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم". وروي أن المزاح والضحك كثر في أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام لما ترفهوا بالمدينة فنزلت هذه الآية.

إن لين القلب لا يكـــون إلا لمن اتبع الدين وعمل به وفق مراد الله تعالى. وإن خشوع القلب لا يتـــأتى إلا بأخذ الدين بقوة وصـــدق، لا بالحيلة والخداع والكذب؛ فالمحتال والمخادع والكذاب والعاصي قاسي القلب بعيد عن الرب.

وفي هذه الآية أربع فوائد:

١- رحمة الله بعباده، ولين خطابه إليهم حيث يقول: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾؛ خطاب كريم من رب كريم رحيم، ليس فيه غلظة ولا قسوة ولا هجر، بل فيه لين العتاب، واستبطاء قلوب المؤمنين.

٢- إن الله ﷻ يريد خشوع القلب لا خشوع الجوارح، وخشوع القلب ذلته وسكونه ورقّته، وإذ يعاتب الصحابة في خشوع قلوبهم، وهم أعلى الناس إيمانًا، فغيرهم أولى بالعتاب.

٣- إن خشوع القلب يكون بذكر الله تعالى وما نزل من الحق، وهو يشمل القرآن والمواعظ وكل ما فيه تذكير بالآخرة والدين.. فمن لم يخشع إذا سمع الذكر والحق فهو داخل في العتاب.

٤- إن قسوة القلوب من سمات اليهود، قال تعالى عنهم: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾(البقرة:٧٤)، وسبب قسوة قلوبهم، هو نقض عهدهم مع الله تعالى، وتحريفهم كلامه، ونسيانهم حظًّا مما ذكّروا به، وعدم أخذهم دينه بالقوة، قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾(المائدة:١٣)؛ فهذه من أعظم أسباب قسوة القلب. وإن لين القلب لا يكون إلا لمن اتبع الدين وعمل به وفق مراد الله تعالى. وإن خشوع القلب لا يتأتى إلا بأخذ الدين بقوة وصدق، لا بالحيلة والخداع والكذب؛ فالمحتال والمخادع والكذاب والعاصي قاسي القلب بعيد عن الرب. وقساة القلوب هم أسرع الناس استجابة لداعي الهوى ووسوسة الشيطان، قال تعالى:﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾(الحج:٥٣).

فالقاسية قلوبهم هم الأقرب للفتنة والزيغ عن الدين. وفي قصة الفضيل، وابن المبارك، أن قارئًا قرأ تلك الآية العظيمة فكان سبب هدايتهما. فلا بد أن ذلك القارئ كان خاشعًا متدبرًا، فمن أجله لامست تلاوته قلوبهم، فأحرقت كل شهوة وذنب فيها حاضرة فيها، وكانت قراءته بالليل، وما أحسن قيام الليل وقراءة القرآن فيه، فإنه أعظم معين على تدبر القرآن وخشوع القلب وحضوره.

أما أسباب رقة القلوب فعدة أمور:

أ- ترك الذنوب، فإن الذنوب تميت القلوب، وإدمانها يورث الذل، فإنها تسود القلب وتمحو منه الإيمان شيئًا فشيئًا حتى لا يبقى فيه إيمان.

ب- كفالة الضعفاء كاليتامى والفقراء والمرضى، وزيارتهم والجلوس إليهم. فإن الذلة والمسكنة والخشوع عند هؤلاء، فمن خالطهم وجالسهم اقتبس منهم. فالمخالط لهم يرى حقيقة الدنيا وتقلبها بأبنائها، فيذهب عن قلبه الكبر الذي هو أكبر أسباب قسوة القلوب. جاء في الحديث القدسي أن الله تعالى يقول: "يا ابن آدم، مرضت فلم تعدني، قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلانًا مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده. يا ابن آدم، استطعمتك فلم تطعمني، قال: يا رب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي" (رواه مسلم).

فالرحمة تتنزل على الضعفاء.. جاء عن رسول الله ﷺ قوله: "وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم" (رواه البخاري). وفي بعض الآثار الإلهية: "ابغني عند المنكسرة قلوبهم". يعني إذا أردت أن تجد قلبك، فاذهب إلى هؤلاء الضعفاء. وهذا بخلاف المخالط لأصحاب الدنيا المستكبرين، فإنها تورث الطغيان، ولا يجد عندهم إلا الأمل والحرص والطمع.

ج- النظر في سير الصالحين من أنبياء وصحابة

hiragate.com

وتابعين، فإنه من أعظم المرقّقات؛ فصحبتهم بركة، ومجالستهم فيها الثمرة.. سيرتهم تدعو طواعية إلى سلوك سبيلهم، نماذج حية، وقلوب مضيئة، لكلامهم نور وبرهان يغني عن مخالطة الناس.. فاتخذهم صاحبًا ودع الناس جانبًا.

كان عمر بن الخطاب ﷺ يعس مرة فسمع قارئًا يقرأ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾(الطور:٧)؛ فاستند إلى الجدار وحمل إلى بيته، ومرض شهرًا لا يدرى ما به. وبكى مرة عمر بن عبد العزيز -وهو أمير المؤمنين- فبكى لبكائه أهل الدار جميعهم، فلما سري عنه سألوه، فقال: "ذكرت منصرف الناس فريق في الجنة وفريق في السعير".

وكان الحسن كثير الحزن، وكان يقول: "أخاف أن يطرحني في النار ولا يبالي". ويقول مطر الوراق: "ما اشتهيت أن أبكي إلا نظرت في وجه محمد بن واسع، وكنت إذا نظرت إلى وجهه فكأنه قد ثكل عشرة من الحزن". وفي ليلة بكى محمد بن واسع حتى بكى من في الدار لبكائه، فأرسلوا لأبي حازم ليستطلع الخبر، فلما جاءه سأله عن بكائه، فقال: قرأت قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾(الزمر:٤٧)، فبكى أبو حازم، وبكى محمد بن واسع.

د- كثرة النظر في أخبار الجنة والنار، وأهوال يوم القيامة، وأحوال القبر. فالقبر يضغط حتى تختلف الأضلاع، ويفتح باب إلى الجنة أو إلى النار، وهناك منكر ونكير. ويوم القيامة الشمس تدنو من رؤوس الخلائق مقدار ميل، والحساب والعقاب، والصراط، والميزان حال كئيب، وزلزلة عظيمة، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۞ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾(الحج:١-٢).

والجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، أكلها دائم وظلها. والنار فيها العذاب المقيم والأليم، لا يقضى على أهلها فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها.

هـ- ذكر الموت هو أعظم واعظ. فالموت قاطع اللذات وهادمها، والموت فضح الدنيا فلم يبق فرحًا. وما ألزم عبد نفسه ذكر الموت إلا صغرت الدنيا في عينيه، وهان عليه جميع ما فيها.

قال القائل: يا ابن آدم، لو علمت قرب أجلك لزهدت في طول أملك، ولرغبت في الزيادة من عملك، ولقصرت من حرصك وحيلك، وإنما يلقاك ندمك لو قد زلت بك قدمك، وأسلمك أهلك وحشمك، فبان منك المال والولد، فلا أنت إلى أهلك عائد، ولا في حسناتك زائد، فاعمل ليوم القيامة يوم الحسرة والندامة.

سكرات الموت شديدة، وإنما لا يصرخ المحتضر؛ لأن الكرب قد بالغ فيه، فلا يستطيع حركة، فتبرد أولاً قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه ثم صدره حتى يبلغ الحلقوم، فحينذاك ينقطع نظره إلى الدنيا، وهذه هي الغرغرة، وعندها يغلق باب التوبة. رأى الحسن البصري رجلاً يحتضر، فرجع إلى أهله، فقالوا العشاء، قال: لا أريد عشاءً، لقد رأيت اليوم منظرًا، لا أزال أعمل له حتى ألقاه.

تلك هي أسباب رقة القلب وخشوعه، ومن لم يخشع لله تعالى ولم يلن قلبه، خيف عليه من أمرين:

١- عذاب معجل في الدنيا، قال تعالى: ﴿فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ۞ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الأنعام:٤٣-٤٥).

٢- أن يلين لكن في نار جنهم، فإن النار تذيب قلوب العاصين حتى يبكون الدم بعدما ينفد الدمع، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾(الزمر:٢٢)؛ فإن أهل النار يشهدون لله بالعدل والحكمة، ويرجعون على أنفسهم باللائمة والعتاب، فيقولون: ﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾(الأنبياء:١٤)، ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾(الملك:١٠). ■

(*) أستاذ بجامعة أم القرى، مكة المكرمة / المملكة العربية السعودية.

hiragate.com

حراء

مجلة علمية ثقافية أدبية

www.hiragate.com

Wissenschaft, Kultur und Literatur Zeitschrift

مجلة علمية ثقافية أدبية

تصدر كل شهرين عن دار النيل للطباعة والنشر والتوزيع

Hira ist eine, durch die Daralnile Druck und Vertag zweimonatlich herausgegebene, Wissenschaft, Kultur und Literatur Zeitschrift

رئيس التحرير

هانئ رسلان

Haupteditor
Hani Raslan

مدير التحرير

إسماعيل قايار

Redaktionsleiter
İsmail Kayar

الإخراج الفني

أحمد شحاتة

ياووز يالمز

Grafik-Design
Daralnile Grafik-Team

منسق الاشتراكات

علاء الكوابري

Abonnenten Koordinator
Ala Alkavabiri
+201000780841
+201023201002

نوع النشر

مجلة دورية تصدر كل شهرين

Ausgabeart
zweimonatlich

الطباعة

دار الجمهورية للصحافة

Druck
Cumhuriyet gazetecilik Verlagshaus

رقم الإيداع

٢٤٢٦١

Ziffer IDA
24261

ISSN 2357-0229

المنحى العام

- حراء مجلة علمية ثقافية أدبية تعنى بقراءة الكون والإنسان والحياة من منظور قرآني حضاري إنساني.
- تهدف إلى بناء الإنسان المتوازن علميًّا وفكريًّا وسلوكيًّا.
- تسعى إلى أن تكون إضافة نوعية مفيدة في الساحة الثقافية شكلاً ومضمونًا.
- مجلة حراء ملتقى للفكر الإيجابي الحضاري البنّاء.
- تنطلق من رؤية حضارية تستمد طاقتها من ثراء الخبرة التاريخية للأمة الإسلامية والأسرة الإنسانية لمعالجة قضايا الواقع واستشراف آفاق المستقبل.
- تسعى إلى معالجة المعارف الإنسانية من منظور تآلفي بين العقل والقلب، والعلم والإيمان، والفرد والمجتمع، والروح والمادة، والنظري والتطبيقي، والمحلي والعالمي، والأصالة والمعاصرة.
- تحرص على الصحة في المعلومة، والإيجابية في الطرح، والعمق في التحليل، والإثارة في الكتابة، والحرية في التعبير مع احترام المقدسات والخصوصيات، والالتزام بالمبادئ الأخلاقية والقيم الإنسانية المشتركة، والإنصات إلى الآخر، والانفتاح على الحكمة الإنسانية حيثما كانت، والحوار البنّاء الذي يخدم الإنسان ويفيده؛ كما تحرص على الابتعاد عن الإقصاء والاستفزاز والإساءة والعنف والتطرف والسطحية والسلبية فيما تنشر.
- تهدف إلى الجمع بين عمق الفكرة، وجمالية الصياغة، وبساطة العبارة، ووضوح المعنى في أسلوب الكتابة.

معايير النشر

- أن تكون المادة المرسلة جديدة لم يسبق نشرها.
- ألا تتجاوز عدد الكلمات ٢٠٠٠ كلمة. وهيئة التحرير لها الحق في التصرف تلخيصًا واختصارًا.
- المادة المرسلة تخضع لتحكيم لجنة علمية استشارية، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء تعديلات على المادة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة تحتفظ بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وطبقًا للتوقيت الذي تراه مناسبًا.
- للمجلة الحق في أن تكتفي بنشر المادة المرسلة إليها في موقعها على الإنترنت دون استئذان كاتبها ما لم يؤكد الكاتب أثناء الإرسال رغبته في النشر في المجلة الورقية حصريًّا. علمًا بأن ما ينشر إلكترونيًّا لا يترتب عليه أي مكافأة مالية.
- المجلة تلتزم بإبلاغ الكتاب بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- للمجلة حق إعادة نشر المادة منفصلة أو ضمن مجموعة من المقالات بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى لغة أخرى دون استئذان صاحب المادة.
- المقالات المنشورة في مجلة حراء تعبر عن آراء كتابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
- مجلة حراء ترجو كتابها الأكارم أن يرسلوا مع المادة نبذة مختصرة عن سيرتهم الذاتية مع صورة واضحة لهم.

ترسل جميع المشاركات إلى البريد الآتي: hiragate@yahoo.com

SUDAN
مركز دار النيل، مكتب الخرطوم
أركويت مربع 48 منزل رقم 31 – الخرطوم – السودان
Phone: 0024 999 559 92 26 - 0024 915 522 24 69
hirasudan@hotmail.com

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Phone: +971 266 789920

KUWAIT
القبلة، القطعة 51، المبنى 31
مجمع: الهيئة العامة لشؤون القصر، الدور 4.
هاتف: ٠٠٩٦٥٩٨٨٩٧٢٧١

NIGERIA
.Nusret Educational And Cultural Co. Ltd
Aguiyi Ironsi St. No: 77/B Maitama - Abuja
Phone: +2349030222525
nusretnigeria@gmail.com

USA
Tughra Books
Clifton Ave., Clifton, NJ, 07011, USA 345
Phone:+1 732 868 0210
Fax:+1 732 868 0211

EUROPE
World Media Group AG
Sprendlinger Landstrabe 107-109
63069 Offenbach a. Main / Germany
Phone: 069 / 300 34 130
Fax: 069 / 300 34 105
dergiler@wmgag.eu

EGYPT
٣٧ شارع د. عبد الشافي محمد – الحي السابع، مدينة نصر – القاهرة.
هاتف: +201091242075 - +201119482609
hiraegypt@gmail.com

SAUDI ARABIA
الوطنية للتوزيع: المكتب الرئيسي: ١٨٢ حي الازدهار، طريق عثمان بن عفان، الطابق الثاني، المكتب رقم ٦، ص.ب: 68761 الرياض: 12537
Phone: +966 11 4871414
الجوال: +966507570864
Fax: +966 11 4943213

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution, d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco
Phone: +212 22 24 92 00

LİBYA
دار الرواد، ذات العماد، برج ٤–طرابلس–ليبيا.
هاتف: ٠٠٢١٨٢١٣٣٥٠٣٣٢ - daralrowdooks@gmail.com
هاتف: ٠٠٢١٨٩١٦١٢٥٥٧٩ - hiralibya@gmail.com

MAURITANIA
Phone: +2223014264

YEMEN
مكتب حراء للنشر والتوزيع
شارع بغداد، مقابل بريد بغداد، صنعاء – اليمن
Phone: +967 1 214774
Fax: +967 1 204494
GSM: +967 736027560

ALGERIA
Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim
GSM: +213 770 26 00 22

"هناك أسس راسخة نجد أنفسنا ملزمين بأن نربط كلّ مضمون ومفهوم وأسلوب فكريّ وتفسير ومقاربة بها.. حتى الثقافة بألوانها المختلفة تحوم وتدور في محيط هذه الأسس، وتنهل من مناهلها، وتتغذى بغذائها، وتنمو بها، ثمّ تتحول بفضلها إلى حال فوق الزمان والمكان.. وهذه الأسس باختصار هي: الكتاب والسنّة".

22 جـ – جنوب الأكاديمية – شارع التسعين الشمالي – التجمع الخامس – القاهرة الجديدة – مصر
تليفون وفاكس: 391 379 25 02 2+
الهاتف الجوال: 01000780841 2+
www.daralnile.com
info@daralnile.com

حراء
مجلة علمية ثقافية أدبية
www.hiragate.com

المملكة العربية السعودية: ١٢ ريالا سعوديا • اليمن: ٣٧٥ ريالا يمنيا • المغرب: ٢٠ درهما • الجزائر: ٢٥٠ دينارا • Europe: 5.30 € • USA: 5 $

قبل المغيب

ساعة رمل تلكم الدنيا،
تمتلئ وتخلو.. بلا صوت ترنو..
ويوما بلا حس ولا نفَس تغدو..

* * *

ISSN 2357-0229
57
www.hiragate.com